قصيدة ابن المعتز (كأنه غرة مهر أشقر)

دراسة بلاغية"

إعداد

أ. د/ أبو زيد محمد علي شومان

أستاذ البلاغة والنقد المتفرغ والوكيل الأسبق لكلية الدراسات

الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

جامعة الأزهر الشريف

١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلي الآل والصحب والسائرين علي الدرب وعنا معهم يا رب العالمين

وبعد..

فابن المعتز من الشعراء المجيدين في الوصف، وقد وصف في هذه القصيدة رحلة صيد له، فوصف فرسه الذي يرتحل عليه بالجودة، ووصف وقت خروجه لرحلته في الصباح الباكر الذي يعتدل هواؤه ويرق نسيمه، ووصف الوحوش فهي مازالت في أوكارها، كما وصف(وجه الثري) وما يعتريه من الجمال، فالورود المتفتحة المتنوعة الألوان، كما وصف الحدائق والبساتين ومناظرها الأخاذة وروائحها العطرة الندية، كما وصف الخمر العتيقة الأصيلة وجمال ساقيها، ثم وصف (الصقر) وجماله وقوته وأطنب في صفاته، فهو آلة الصيد، كل ذلك في أسلوب شائق رائق عزب كالسلسبيل مزجه بتشبيهاته التي برع فيها، ومجازاته وكناياته التي وظفها لمعناه، وبقية عناصر الأسلوب التي أحكم صنعتها فكثرت إيحاءاتها ودقت معانيها فوقفت علي بعضها وعند بعضها، ولعل متأملا آخر يري فوق ما رأيته ويكشف مالم أتوصل إليه فتلك منحة وعطية بها يتفاضل البشر، وكما قال صلي الله عليه وسلم (... إنما أنا قاسم والله يعطي...) [1]

الكلمات المفتاحية: قصيدة ابن المعتز (كأنه غرة مهر أشقر)- في الوصف - دراسة بلاغية .

---

(١) صحيح البخاري- كتاب الخمس- باب: قول الله تعالى: {فإن لله خمسه وللرسول}، الأنفال: ٤١.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد..

فقد كان لي سابق عهد مع ديوان ابن المعتز حيثُ كتبت فيه بحثًا بعنوان: "الدّلالات النّفسية للألوان في تشبيهات ابن المعتز في الخمر والغزل، تحليل ونقد"[١] فوجدتُه جعل اللون عنصرًا من عناصر الأسلوب، يستعين به في كشف المعنى وجلائه بتجسيده وتلوينه، ما يدلُّ على مقدرته الفنِّيَّة الَّتي لا تخفى على ناقد حصيف، يُدرك جمال الأسلوب، ويعرف قيمة جزيئاته وترتيبها وظلالها، وكيف يستطيع الشّاعر أن يوظِّف مهاراته وأدواته في رسم مشهده، وتظليله بظلال نفسيته، بعبقرية ومهارة من ناحية، ومن ناحية أخرى، يجعل المتلقيّ يعيش معاني هذا النّص بنشاط ورغبة، ومُتعة ولهفة عندما يجد هذا الانسجام والتآلف والتآخي بين الألفاظ والدّلالات اللُّغوية والإيحائية ويرى خيالات الصّورة قد جسَّدت هذه المعاني تجسيدًا يُلامس العقل والوجدان بمتعةٍ تربو على المُتع الحسِّية، والملذَّات الجسدية...

كما أنِّي أشرفت على رسالة (ماجستير) بعنوان: "السّخر عند أبي نواس وابن المعتز، دراسة بلاغية موازنة"[٢] و" الدّلالات النّفسية للألوان في ديوان عبدا لله بن المعتز، دراسة بلاغية تحليلية"[٣].

---

(١) نُشر في مجلة اللغة العربية بأسيوط، العدد الثلاثون، الجزء الأول، يوليو ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

(٢) للباحثة: أسماء محمد فهمي حسن ١٤٣٩هـ ٢٠١١م.

(٣) للباحثة: سماح فتحي أحمد سلطان ١٤٤٠هـ ٢٠١٩م.

فضلًا عن أنَّ ابن المعتز من الأدباء والنّقاد، الذين لهم إسهامات وافرة في المجال النّقديّ والبلاغيّ، فهو صاحب كتاب (البديع) الَّذي كانت له من الإضافات البلاغية ما وقف عندها البلاغيون وقفة تقدير وثناء، لما فيه من جهدٍ وإمتاع.

كذلك نجد أمهات كتب البلاغة تُكثر من الشّواهد من شعر ابن المعتز في كثير من أبواب البلاغة، وتُبْرِز قوَّة شعره ورصانته، وقد جمعتُ شواهده في دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني؛ لتحليلها والنّظر فيها، والله الموفق والمعين.

وابن المعتز من الشّعراء المجيدين في وصف الأشياء كلّها وإن غلب عليه الإجادة في بعضها[١]، فقد برع في وصف الخمر والصّيد والطَّرد[٢]، والنّاظر في ديوانه، يرى تأكيد ذلك، فديوانه إلَّا أقله خمر وغزل وصيد، ولا شك أنَّ هذه الأشياء تتطلب وصف المكان وجماله بأنَّه حدائق غنَّاء، وورود وزهور فيحاء، وكأس وسقاة، وأصحاب وخِلّان...

وقد ذكر ابن المعتز مظاهر الطبيعة متحرِّكها وساكنها، وأكثر من ذلك في شعره عامَّة بما يتحمَّل أطروحة دكتوراة، وفي هذه القصيدة الَّتي نحن بصدد تحليلها خاصة، فمظاهر الطبيعة المتحركة الَّتي ذكرها منها: الجِيَاد والوحوش والغزال والبازي، والصّامتة: الصّبح والليل ووجه الثَّرى والعصْب والوَشْى والجوهر، واللون الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر، والرِّياض النّاضرة، والزّهور اليانعة، والشّمس والنّجوم والسّراج والعنب، وكان لمظاهر الطبيعة أثر كبير في أسلوبه فرسم بها مشاهده، وزخرف مناظره، وجسَّد صوره على نحو ما

---

(١) العمدة، لابن رشيق، ت: محمد محي الدّين عبد الحميد، (٢/٢٩٥) ط: الخامسة ١٤٠١هـ – ١٩٨١م، دار الجيل. بيروت.

(٢) السابق (٢/٢٩٦).

نرى في قصيدته هذه.

والقصيدة تدور حول رحلة صيد خرج لها في " السَّحَر" هذا الوقت وما يكتنفه من جمال أخَّاذ، ونسمات عطريَّة عبقة تهدأ النّفس، وتنعش الفؤاد، وقد أفسح الشّعراء مساحة كبيرة للحديث عن هذا الوقت، وكَسَوه بزَرْكشةٍ لفظية وزَخرَفَةٍ أسلوبية، فيها إبداع وإمتاع، ومن بين هؤلاء الشّعراء ابن المعتز الَّذي عرض له في كثير من قصائده ومقطوعاته.

وقد بدأ القصيدة بوصف جياده الَّتي رحل عليها، ووصفها بالقوَّة والأصالة، ثم وصف الرِّياض وجمالها، واختلاف ألوانها، وقد غُسِلت بليل مُمْطر، ثم عرض للغُدْران وجمالها، وصفاء مائها والشّمس وقد أشرقت على هذه المناظر الخلَّابة الماتعة، ثم عرض للخمر والسّاقي واستطرد في وصف جماله، ثم تخلَّص إلى ذكر أداة الصّيد "البازي" الَّتي كانت القصيدة بسببه وأنهى به القصيدة.

وقد ذكر أبو بكر الصّولي في كتابه: (أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم)(١) هذه القصيدة تحت عنوان: "أبيات ابن المعتز في وصف الصّيد والرّوض والبازي (الصّقر) وذكرها محقق الدّيوان تحت عنوان: "الصّبح كغُرَّةِ مهرٍ أشقر" وهذا العنوان من صنيع المحقق، حيثُ اختار لكل قصيدة أو مقطوعة عنوانًا من داخلها يمكن أن يُغَيَّر بكثير من العناوين.

وقد وجدتُ اختلافًا كبيرًا بين قصيدة الدّيوان، وقصيدة أبي بكر الصّولي، زيادة ونقصًا، وترتيبًا في الأبيات، واختلافًا في الرّوايات، ولأجل ذلك سأثبت القصيدتين، ثم أُشير أثناء التّحليل للفروق بين الرّوايات، وهل توجد بعض الرّوايات أبلغ من بعض؟

(١) توفي ٣٣٥هـ، طبع بمطبعة الصاوي بمصر ١٩٣٦م (٢/٢).

وينبغي الإشارة – قبل البدء في تحليل القصيدة – إلى ما في ديوان ابن المعتز من أخطاء وتصحيف، فبين يديَّ نُسخة لديوان ابن المعتز بتحقيق كرم البستانيّ، دار صادر بيروت، مجلد واحد من دون تاريخ، تقع في ٥٢٢ خمسمائة واثنين وعشرين صحيفة، من القطع المتوسِّط، وقد أشار المحقق إلي كثير من الأخطاء العَروضية، والأخطاء الَّتي تُخلُّ بالمعني، وتجعله ركيكًا مضطربًا، وبقي كثير من الأخطاء الَّتي لم يُشر إليها، ونسخة أخرى دراسة وتحقيق الدّكتور محمد بديع شريف، ذخائر العرب ٥٤– من غير مطبعة أو تاريخ طباعة في مجلدين وهي أحسن حالًا من الأولى، ونسخة ثالثة فسَّر ألفاظها الغريبة ووقف على طبعها: محي الدّين الحبَّاط، طبع بمناظرة والتزام: عبد الباسط الأنسي، صاحب جريدة الإقبال، طُبع في مطبعة الإقبال في بيروت، من دون تاريخ طباعة، تقع في ٣٤٣ ثلاثمائة وثلاث وأربعون صحيفة، لكن الدّيوان ما يزال يحتاج عقلًا فاحصًا ناقدًا يتأمله، ويتملَّى صوره وأخيلته، وبيانه الرّائع الرّائق، وأسلوبه السّهل المترقرق...

وقد تمثَّلت خطة البحث، بتقسيم القصيدة إلى أربعة أفكار رئيسة هي:

أولًا: وصف الجياد والسّحر.

ثانيًا: وصف الوحوش والرِّياض.

ثالثًا: وصف الخمر والسّاقي.

رابعًا: وصف البازي (الصّقر)، أعقب ذلك حديث عن ألفاظ وأساليب ومعاني القصيدة

واشتمل على:

أولًا: الأسلوب الخبري في القصيدة وعلة اختياره.

ثانيًا: الجملة الحالية وأثرها في الأسلوب.

ثالثًا: مظاهر الطبيعة وامتزاجها مع الألوان البلاغية وأثرها في الأسلوب.

رابعًا: أثر اللون في أسلوب القصيدة.

خامسًا: حروف الرّبط وأثرها في الأسلوب.

ثم خاتمةً تضمَّنت نتائج الدّراسة وثبت لأهم المصادر والمراجع وفهرس للموضوعات.

أمَّا منهج البحث فكان قراءة للقصيدة، وتأمُّلًا في ألفاظها وأساليبها ومعانيها، وعرض مظاهر الطبيعة الَّتي ذكرها، وأثر هذه المظاهر على ألفاظه وأساليبه ومعانيه، وكيف كانت هذه المظاهر هي المادة الَّتي صاغ منها الشّاعر صوره ومشاهده، من تشبيه واستعارة وكناية؟ وكيف جعل اللون عنصرًا من عناصر أسلوبه؟ وكيف استطاع أن يوظِّف أدوات الرّبط؟ وقد كان الاعتماد الأول على فهم النّص والوقوف عنده، وتدبر سياقه، مع النّظر في كتب المعاجم العربية، والتراث البلاغي والنّقدي، الَّذي يُعَدُّ المنبع العذب، الَّذي خَلَّفه علماؤنا الأفزاز.

والله من وراء القصد، هو حسبي الله و نعم الوكيل

وصلَّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم

نص القصيدة في الديوان

لقد جاءت القصيدة في ديوان ابن المعتز تحت عنوان: (الصّبح كغُرَّةِ مُهْرٍ أَشْقَر)، يقول:

١- قَد أغتَدي عَلى الجِيادِ الضُمَّرِ وَالصُبحُ في طَرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ

٢- كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهرٍ أشقَرِ وَالوَحشُ في أوطانِها لَم تُعذَرِ

٣- جَلا لَنا وَجْهَ الثَرى عَن مَنظَرِ كَالعَصبِ أو كَالوَشيِ أو كَالجَوهَرِ

٤- مِن أبيَضٍ وَأحمَرٍ وَأصفَرِ وَطارِفٍ أجفانَهُ لَم يَنظَرِ

٥- تَخالَهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوِّرِ

٦- كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ وَأدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ

٧- وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ

٨- أو كَتَفسيرِ مُصحَفٍ مُفَسَّرِ وَالشَمسُ في إصحاءِ جَوٍّ أخضَرِ

٩- كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأزهَرِ

١٠- مُدامَةَ تَعقِرُ إن لَم تُعقَرِ تُديرُها كَفُّ غَزالٍ أحوَرِ

١١- ذي طَرَّةٍ عاطِرَةٍ كَالعَنبَرِ وَمَبسِمٍ يَكشِفُهُ عَن جَوهَرِ

١٢- وَكَفَلٍ بِسَفلِ فَضلِ المِئزَرِ تُخبِرُ عَيناهُ بِعِشقٍ مُضمَرِ

١٣- يُعَلِّمُ الفُجورَ مَن لَم يَفجُرِ وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أقمَرِ

١٤- كَأَنَّهُ في جَوشَنٍ مُزَرَّرِ ذي مُقلَةٍ تَسرَحُ فَوقَ المَحجَرِ

١٥- كَأَنَّهُ رَقٌّ خَفِيُّ الأسطَرِ وَذَنَبٌ كَالمُنصُلِ المُذَكَّرِ

نص القصيدة في كتاب أشعار أولاد الخُلفاء وأخبارهم لأبي بكر الصولي

جاءت القصيدة برواية أبي بكر الصّولي بزيادة ثلاثة أبيات واختلاف في أشطر الأبيات وبعض الألفاظ وهذا نصَّها:

قَدْ أَغْتَدِى عَلَى الجِيادِ الضُّمَّرِ وَالنَّجْمُ فِي طُرَّةِ صُبْحٍ مُسْفِرِ

وفي رواية (والصبح أسفر أو لم يُسفر)

كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهْرٍ أَشْقَرِ وَالْوَحْشُ فِي أَوْطانِها لَمْ تُذْعَرِ

وَالرَّوْضُ مَغْسُولٌ بِلَيْلٍ مُمْطِرِ جَلا لَنَا وَجْهَ الثَّرَى عَنْ مَنْظِرِ

وفي رواية: (حتى بدا في ثوبه المُعصفَر)

كَالْعَصْبِ أَوْ كَالْوِشْي أَوْ كَالْجَوْهر من أبيض وأحمر وأصفر

وَطارِفٍ أَجْفانَهُ لَمْ يَنْظُرِ تَخالُهُ الْعَيْنُ فَمًا لَمْ يُفْغَرِ

وَفاتِقٍ كادَ وَلَمْ يُنَّورِ كَأَنَّهُ مُبْتَسِمٌ لَمْ يَكْشِرِ

وَأَدْمُعُ الْغُدْرانِ لَمْ تُكَدَّرِ كَأَنَّها دَراهِمٌ فِي مِنْثَرِ

أَوْ كَعُشُورِ المُصحِف المُنَّشرِ وَالشَّمْسُ فِي إصْحاء جِوّ أَخْضَرِ

كَدَمْعَةٍ حائِرَةٍ فِي مَحْجِرِ تسقَى عُقارًا كالِسّراجِ ٱلأَزْهَرِ

مُدامَةً تَعْقِرُ إنْ لَمْ تُعْقَرِ يُدِيرُها كَفُّ غَزالٍ أَحْوَرِ

فِي طُرَّةٍ قاطِرَةٍ بِٱلعَنْبَرِ وَمِلْثَمٍ يَكْشِفُهُ عَنْ جَوْهَرِ

وَكَفَلٍ يَشْغَلُ فَضْلَ الْمِئْزَرِ وَيَذْعَرُ الصَّيْدَ ببِازٍ أَقْمَرِ

كَأَنَّهُ فِي جَوْشَنٍ مُزَرَّرِ ذِي مُقْلَةٍ تَسْرَحُ فَوْقَ المَحْجِرِ

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخَنجِرِ تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ

وَهامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدَوَّرِ وَجُؤْجُؤٍ مُنَمْنَمٍ مُحَبَّرِ

كَأَنَّهُ رِقٌ خَفِيٌّ ٱلأَسْطُرِ وَذَنَبٍ كَٱلمُنْصُلِ الْمُذَكَّرِ

أَوْ كَنَجِيِّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ وَقَبْضَةٍ تَقْصِلُ إنْ لَمْ تَكْسِرِ.

قَلَّصَ فَوْقَ الدَّسْتَبانِ ٱلأَحْمَرِ جَناحَهُ كَرِدْيَةِ المُشَمَّرِ

وكما يلاحظ فبين رواية الدّيوان ورواية الصّولي اختلاف في:

أولًا: زيادة رواية الصّولي عن رواية الدّيوان أربعة أبيات في وصف البازي وهي قوله في البيت الرّابع عشر والخامس عشر والسّابع عشر والثامن عشر:

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخنْجرِ   تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ

وَهامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدَوَّرِ   وَجُؤْجُؤٍ مُنَمْنَمٍ مُحَبَّرِ

كَأَنَّهُ رِقٌّ خَفِيُّ ٱلأَسْطُرِ   وَذَنَبٍ كَٱلْمُنْصُلِ الْمُذَكَّرِ

أَوْ كَنَجِيّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ   وَقَبْضَةٍ تَقْصِلُ إنْ لَمْ تَكْسِرِ.

قَلَّصَ فَوْقَ الدَّسْتَبانِ ٱلأَحْمَرِ   جَناحَهُ كَرِدْيَةِ المُشَمَّرِ

ثانيًا: اختلاف بعض رواية الأبيات في كتاب أبي بكر الصّولي ولكن المعنى واحد فرواية مطلع القصيدة في الدّيوان:

١- قَد أَغتَدي عَلى الجِيادِ الضُمَّرِ   وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ

ورواية الصّولي للشطر الثاني: **(وَالنَّجْمُ فِي طُرَّةِ صُبْحٍ مُسْفِرِ)**

وأورد رواية أخرى: **(والصّبح أسفر أو لم يسفر)**

والبيت الثاني في الدّيوان:

٢- كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهرٍ أَشقَرِ   وَالوَحشُ في أَوطانِها لَم تُعذَرِ

رواية أبو بكر الصّولي **(وَالْوَحْشُ فِي أَوْطانِها لَمْ تُذْعَرِ)**.

كما اختلف ترتيب بعض الأبيات في الدّيوان عن رواية الصّولي من ناحية، ومن ناحية أخرى اختلاف التّرتيب نتج عنه أن بعض الأبيات تداخلت في بعضها إذ نجد الشّطر الثاني في البيت في الدّيوان هو الشّطر الأول في البيت عند رواية الصّولي، فقد وردت هذه الأبيات في الدّيوان هكذا:

٣- جَلا لَنا وَجهَ الثَرى عَن مَنظَرِ   كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ

٤- مِن أَبيَضٍ وَأَحمَرٍ وَأَصفَرِ   وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ

٥- تَخالُهُ العَينُ فَمًا لم يُفغَرِ   وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوِّرِ

٦- كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ   وَأَدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ
٧- وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ   كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ
٨- أَو كَتَفسيرِ مُصحَفٍ مُفَسَّرِ   وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ
٩- كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ   تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

ورواية أبي بكر الصّولي لهذه الأبيات هكذا:

وَالرَّوْضُ مَغْسُولٌ بِلَيْلٍ مُمْطِرِ   جَلا لنَا وَجْهَ الثَّرَى عَنْ مَنْظِرِ
كَالْعَصْبِ أَوْ كَالْوِشْي أَوْ كَالْجَوْهر   من أبيض وأحمر وأصفر
وَطارِفٍ أَجْفانَهُ لَمْ يَنْظُرِ   تَخالُهُ الْعَيْنُ فَمًا لَمْ يُفْغَرِ
وَفاتِقٍ كادَ وَلَمْ يُنَوِّرِ   كَأَنَّهُ مُبْتَسِمٌ لَمْ يَكْشِرِ
وَأَدْمُعُ الْغُدْرانِ لَمْ تُكَدَّرِ   كَأَنَّها دَراهِمٌ فِي مِنْثَرِ
أَوْ كَعُشُورِ المُصحِفِ المُنَشَّرِ   وَالشَّمْسُ فِي إِضْحا جوّ أَخْضَرِ
كَدَمْعَةٍ حائِرةٍ فِي مَحْجِرِ   تسقَى عُقارًا كالسِّراجِ ٱلأَزْهَرِ

ومع اختلاف التّرتيب بين الدّيوان ورواية الصّولي نجد أنَّ قوله: **(تَخالُهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ)** تشبيهًا لقوله: **(وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ)** كما نجد قوله: **(كأنَّه مبتسمٌ لم يكشِرِ)** تشبيهًا لقوله: **(وفاتق كاد ولم يُنوِّر)** لكن على رواية الدّيوان نجد قوله: **(كأنَّه دراهم في منثر)** تشبيهًا لقوله: **(والرّوض مغسول بليل مُمْطر)**.

أفكار القصيدة

والقصيدة فكرتها واحدة، ملتئمة المعاني، متسلسلة الأفكار، وقد جاءت بالأسلوب الخبري، وخلت من الأسلوب الإنشائي؛ لأنَّها في الوصف، والوصف كشف عن حقائق ومشاهد؛ ولذا كثُرت في الجملة الحالية الَّتي هي وصف لهيئة، وبيان لحالة.

والآن إلي دراسة أفكار القصيدة.

أولًا: وصف الجياد والسّحَر.

في قوله:

١- قَد أَغتَدي عَلى الجِيادِ الضُمَّرِ ... وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ

٢- كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهرٍ أَشقَرِ ... ...

ثانيًا: وصف الوحوش والرياض.

في قوله:

٢- ... ... وَالوَحشُ في أَوطانِها لَم تُعذَرِ

٣- جَلا لَنا وَجهَ الثَرى عَن مَنظَرِ ... كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ

٤- مِن أَبيَضٍ وَأَحمَرٍ وَأَصفَرِ ... وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ

٥- تَخالُهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ ... وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوَّرِ

٦- كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ ... وَأَدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ

٧- وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ ... كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ

٨- أَو كَتَفسيرِ مُصحَفٍ مُفَسَّرِ ... وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ

٩- كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ ... تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

ثالثًا: وصف الخمر والسَّاقي:

في قوله:

١٠- مُدامَةً تَعقِرُ إن لَم تُعقَرِ   تُديرُها كَفُّ غَزالٍ أَحوَرِ
١١- ذي طُرَّةٍ عاطِرَةٍ كَالعَنبَرِ   وَمَبسِمٍ يَكشِفُهُ عَن جَوهَرِ
١٢- وَكَفَلٍ بِسَفلِ فَضلِ المِئزَرِ   تُخبِرُ عَيناهُ بِعِشقٍ مُضمَرِ
١٣- يُعَلِّمُ الفُجورَ مَن لَم يَفجُرِ   ...

رابعًا: وصف البازي (الصقر):

١٣- ...   وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أَقمَرِ
١٤- كَأَنَّهُ في جَوشَنٍ مُزَرَّرِ   ذي مُقلَةٍ تَسرَحُ فَوقَ المَحجَرِ
١٥- كَأَنَّهُ رَقٌّ خَفِيُّ الأَسطُرِ   وَذَنَبٌ كَالمُنصُلِ المُذَكَّرِ

أولًا: وصف الجياد والسّحَر.

في قوله:

١- قَد أَغتَدي عَلى الجِيادِ الضُمَّرِ   وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ
٢- كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهرٍ أَشقَرِ   ...

صدَّر بيته وقصيدته بدخول (قد) على الفعل المضارع (قد اغتدى) ومقصوده هنا التّحقيق والتأكيد على كثرة خروجه في هذا الوقت، وليس المقصود ب(قد) هنا التّقليل، وهي ظاهرة أسلوبية عُنِي بها النّحاة والبلاغيون، وبيّنوا أنَّ السّياق هو الحكم والفيصل في ذلك كقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾[الأحزاب: ١٨]. ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[البقرة: ١٤٤]. ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣][(١)].

(١) انظر التعبير عن المعنى واحتمال عكسه دراسة بلاغية (ص٢٩) مطبعة إيجيبت كوبي سنتر. أسيوط ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

وقوله: (اغتدى) الغُدوة بالضّم: البُكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشّمس... وغَدَا عليه غَدوة وغُدوًا واغتدى: بكَّرَ، والاغتداء: الغُدوّ، وغاده: باكره، وغدا عليه[١].

وهو يقصد خروجه مبكرًا لرحلات الصّيد هذه، وقد كثُر هذا الأسلوب عند ابن المعتز مقرونًا بالحديث عن السّحر وعن خروجه مبكرًا لصيده، أو لشرب الخمر أو للقاء محبوبته، كما كثُر عند أبي نواس لهذه الأغراض وقبلهما امرؤ القيس كقوله:

وَقَدْ اغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِيْ وُكُنَاتِهَا   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ[٢]

وهو يدل على أن الخروج كان مبكرًا، وأن عادتهم هذه أصيلة مشهورة، حتى انتهجها غالب الشّعراء وسجّلوها في شعرهم؛ فالبكور محمود في كلّ شيء؛ لأنَّه يمتلك أول اليوم الَّذي فيه من الحركة والنّشاط وصفاء الذهن، وقوة الجسد، والقدرة على العمل والكسب.

لكنَّ بكور ابن المعتز كان لدنيا يصيبها، وشهوة يغتنمها، وملذَّة يبقى إثمها، نسأل الله له ولنا العفو والعافية.

ثم ذكر وسيلة الرّحلة الَّتي خرج عليها وهي الخيل الَّتي تتحمل المشاقّ، وتجوب الفيافي والقفار، وقد حذف الموصوف (الفرس أو الخيل) وأتى بصفتين تدلان على أصالتها وجودتها (الجياد الضّمر) الجياد: جمع جواد، تقول: فرسٌ جوادٌ بيّن الجودة، وجاد الفرس: أي صار رائعًا، يجود جُودةً بالضّم، فهو جواد للذكر والأنثى من خير الجياد وأجواد وأجاويد[٣].

وقد جمع (جياد) جمع؛ ليدل على غناه ورفاهيته وأنَّه يُعِدُّ لأمثال هذه الرّحلات كثيرًا من الجياد الجيدة الأصيلة، كما تدل على أن هذه الرّحلات

(١) لسان العرب، ابن منظور (٣٢٢٠/١) طبعة دار المعارف.

(٢) ديوان امرؤ القيس؟؟؟

(٣) لسان العرب (جود) (٧٢٠/١).

يصاحبه فيها أنصار وأعوان وأحبَّاء وأُنساء، ولكنَّه عبَّر بلفظ (اغتدى)؛ ليدل على سيادته وشرفه، وأنَّه أميرهم وقائدهم، وهكذا كان ابن المعتز فقد كان ملكًا وابن ملكٍ.

والوصف الثاني لهذه الخيل (الضُّمر)... وتضميرها: أن تعلف قوتًا بعد سِمَنِهَا... ويكون المضمار وقتًا للأيام الَّتي تضمر فيها الخيل للسباق أو الرّكض إلى العدو، وتضميرها: أن تُشدَّ عليها سروجها وتُجلَّل بالأجِلَّة حتى تعرق تحتها؛ فيذهب رهلها ويشتد لحمها(١).

وقد استعمل (على) في الاستعلاء الحقيقيّ، ولم يرد هذا الحرف في القصيدة إلَّا مرة واحدة.

وذكره للجياد الأصيلة العتيقة (الجياد الضمر) يأخذك إلى شجاعته وقوة قلبه، وشدة بأسه، فأمثال هذه الجياد لا يمتطيها إلَّا فارس مغوار، ولا يسوقها إلَّا صاحب بأس، وقلب قويّ، وعزيمته قاطعة، لكنَّه لم يشأ أن يُتبع وصف الجياد الضامرة بوصف شجاعته؛ لأنَّ السياق سياق رياض يانعة وورود متفتحة، وغُدْران صافية، ومدامة وساقٍ، وصيدٍ وبازٍ هو القصد والهدف والغاية من هذه القصيدة.

ثم حدد وقت خروجه هذا بقوله: (والصّبح في طرّة ليلٍ مسفر) وهي جملة حالية تُبيِّن حال الصّبح في هذا الوقت، وما يكتنفه من ضوء وظلام، فالليل في إدبار والصّبح في إسفار وإقبال، والطُّرَّة: طُرَّة الثوب، وهي شبه علمين يُخاطان بجانبي البُرد على حاشيته(٢).

وهذه الجملة هي المعنى الرئيس الذي بنى عليه قصيدته، ونوَّع فيه المناظر والمشاهد والصور، فكلُّ صوره ومشاهده الجميلة مرتبطة بهذا الوقت،

---

(١) لسان العرب (ضمر) (٢٦٠٦/٤).

(٢) السابق (سفر) (٢٠٢٤/٣)

فمجال هذه المشاهد مأخوذ من جمال هذا الوقت وطراوته ونداه وهدوئه وسكونه وًانسه، كما سنرى في القصيدة.

وهذه جملة مليئة بالمجازات المتداخلة والخيالات الرّاقصة الَّتي حددت ووصفت هذا الوقت، فقد جسَّد الصّبح كما جسَّد الليل؛ إذ جعله ثوبًا له طُرَّة وعلامة، وهذه الطُّرَّة وهذه العلامة هي الصّبح، ولك أن تتخيل ثوبًا يغلب عليه السّواد ولكن في جوانبه خطوط بيضاء صغيرة، وهذا يشير إلى أن الليل ما زال غالبًا، وأن الظّلام ما زال مسيطرًا، لكنَّه آخذٌ في الانقضاء والذهاب؛ ولذا وصف الليل ب(مسفر)... السّفْر: قطع المسافة والجمع أسفار، والمُسفِر: الكثير الأسفار والقوي عليها(١) فقوله: (ليل مسفر) من السّفر وهو قطع المسافة وليس من الإسفار بمعنى الوضوح والظّهور فترى الاستعارة المكنية في قوله: (والصّبح في طرَّة ليل مسفر).

حيث شبه الصّبح بلون مضيء طُبِع وزُخرف به طرّة الليل، كما تراها في قوله: (في طرَّة ليل مسفر) حيثُ جعل لليل طُرَّة، وهذه الاستعارة كشفت عن غلبة ظلام الليل على ضوء الصّبح كما صورت هذا الوقت وكأنك تنظر إلي ثوب غلب عليه السّواد وبه خطوط بيض، فترى البياض مختلطًا بالسّواد، وقد ورد البيت برواية أخرى(٢).

(والنّجم في طُرَّة صبح مسفر) وفيه استعارة مكنية أيضًا في قوله: (طُرَّة صبح) حيثُ جعل للصبح طُرَّة فشبَّه الصّبح بثوب أبيض طرره النّجوم ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفة الطُّرَّة ولا يصح جعله التّشبيه من قبيل التّشبيه من إضافة المُشبَّه به إلى المُشبَّه فنقول: صبح كالطُّرَّة؛ لأنه لا يقصد تشبيه الصّبح بالطرة وإنَّما يقصد تشبيه الصّبح بثوب طُرَّته النّجوم، وهذه الاستعارة تدل على أن

---

(١) لسان العرب (سفر) (٢٠٢٤/٣).

(٢) انظر: أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم؛ لأبي بكر الصولي (ص٢١٢).

الصّبح قد بسط ضياءه ونشر نوره، وأن الليل قد ذهب وانمحى ولم يتبق من آثاره إلَّا هذه الطُّرَّة، والجملة كناية عن انتشار ضوء الصبح وظهوره، وهذه الكناية مبنية على الاستعارة متولدة منها، وإنما خصَّ النّجم هنا؛ لأنَّها تطلع عند الصّبح[١].

يقول الصّولي: (والنّجم نجم السّماء ما يزال باديًا يصف غدوُّه بالصّيد في وقت البكور حتى لا يبدو النّجم محمرًا في وقت الفجر)[٢].

وفي هذه الرّواية ترى خروج ابن المعتز أقل بكورًا من قوله: (والصّبح في طرَّة ليلٍ مسفر) ففي قوله: (والنّجم في طرة صبح مسفر) ترى الصّبح قويًّا قد نشر نوره وبسط ضياءه على الكون ولم يتبقَ من الليل إلَّا مثل الطّرة والعلامة في الثوب.

وقول مسفر هنا معناه: ....من سَفَرَ الصّبح وأسفر: أضاء، وأسفر القوم: أصبحوا، وأسفر: أضاء قبل الطّلوع، وسفر وجهه حُسْنًا، وأسفر: أشرق[٣].

وهي تؤكد معنى سيطرة النّور وانتشاره، وقوله (مسفر) إيغال[٤] أفاد في رواية (والصّبح في طرة ليل مسفر) سفر الليل، وتهيؤه واستعداده للرحيل وفي رواية (والنّجم في طرة ليل مسفر) ظهور الصّبح وإضاءته وانتشاره وأن النّجوم كادت أن تختفي وتغيب.

---

(١) لسان العرب (نجم) (٤٣٥٨/٦).

(٢) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم؛ لأبي بكر الصولي (ص٢١٢).

(٣) لسان العرب (سفر) (٢٠٢٥/٣).

(٤) وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها. الاتقان، للسيوطي (١٨٧/٢)، ت: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م، وتحرير التحبير لابن أبي الأصبع، ت: حنفي محمد أشرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

وعلى كلا الروايتين فالظرفية (في) مجازية، فهي استعارة تبعية؛ إذ يستحيل أن يكون الصبح أو النجم مظروفًا لطرة الليل، وهذه الظرفية المجازية، كشفت عن تلبس نور الصبح والنجم في ظلام الليل كتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيّ.

وقد أورد الصّولي[١] رواية ثالثة وهي (والصّبح أسفر أو لم يُسفر) و(أو) هنا للشك وهي الَّتي لا تقع إلَّا بعد الخير[٢] فلاختلاط ظلام الالليل بنور الصّبح وتداخلهما وتشابكهما يشك المتكلم في ظهور الصّبح أو عدم ظهوره لاستواء الظّلمة والضّياء في المقدار وعدم غلبة أحدهما على الآخر فهو لا يستطيع الحكم بذهاب الليل أو بقائه كما لا يستطيع الحكم بمجيء الصّبح أو، لا، والجملة كناية عن اختلاط ظلام الليل بضياء الصّبح واستوائهما في المقدار بحيث يتردد المتكلم في حكمه ويشك فيه.

كقوله يصف الشراب في هذا الوقت:

قُم يا نَديمي نَصطَبِح بِسَوادِ		قَد كادَ يَبدو الصُبحُ أَو هُوَ بادِ
وَأَرى الثُرَيّا في السَماءِ كَأَنَّها		قَدَمٌ تَبَدَّت في ثِيابِ حِدادِ[٣]

فقوله: (قَد كادَ يَبدو الصُبحُ أَو هُوَ بادِ) كقوله هنا: (الصبح أسفر أو لم يُسفر)

وقد أُغرم ابن المعتز بتصوير هذا الوقت وتلوينه وأورد كثيرًا من الصّور لهذا الوقت الملَّون وقد ورد في ديوانه ما يقرب من سبعين مرة في صور رائقة وتركيبات غنية الدّلالات والأخيلة وزركشة أساليبه وزخرفتها بتشبيهات ومجازات

---

(١) انظر: أشعار أولاد الخلفاء (ص٢١٢).

(٢) رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمقالي (ص١٣١)، ت: أحمد محمد الخرَّاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، من دون تاريخ.

(٣) ديوان ابن المعتز (ص١٧٧).

وكنايات وغير ذلك؛ غاية في الروعة وغاية في تجويد وتدوير الأساليب، كقوله(١) يصف همومه وأحزانه في هذا الليل الطّويل:

وَالدُجى قَد يَنهَضُ الصُبحُ فيهِ　　　قائِمًا يَنشُرُ ثَوبَ الضِياءِ

مَن لِهَمٍّ قَد باتَ يُشجي فُؤادي　　　ما لَهُ حالُ دَمعَتي مِن خَفاءِ

فترى الصّبح قائمًا ناهضًا ليس إلى الدُّجى ولكن (فيه) بهذه الظّرفية المجازية حيثُ جعل الدُّجى ظرفًا والصّبح مظروفًا على الاستعارة التّبعية؛ لنشر الضّياء ثم يصف الصّبح بصفتي (القيام) ونشر ثوب الضّياء فترى الاستعارة المكنية في قوله: (الصّبح) حيثُ شبهه بإنسان ثم حذف المُشبَّه به ورمز له بصفة النّهوض، وجعل هذه الاستعارة تبعية أولى وأليق بالسّياق؛ لأن المقصود هو انتشار الصّبح وعموم نوره ولفظة (ينهض) هي التّي تناصر هذا المعنى وليس على جعلها استعارة مكنية.

وكذا قوله: (ينشر ثوب الضّياء) يصح إجراؤها على أنَّها استعارة مكنية بأن يشبه الصّبح بإنسان ثم يحذف المُشبَّه به ويرمز بصفة من صفاته وهي (ينشر)، والقرينة ينشر، لكن إجراء الاستعارة على أنَّها تبعية أولى بالسّياق وأن الصّبح قد ظهر وعمت تباشيره الأنحاء وقوله(٢) في وصف رحلة الصّيد:

لما تفرى الأفقُ بالضياءِ　　　مثلَ ابتسامِ الشّفةِ اللّمياءِ

وشمطت ذوائبُ الظلماءِ　　　وهَمّ نجمُ اللّيلِ بالإغفَاءِ

قُدنا لِعِينِ الوحشِ والظّباء　　　داهيةً محذورةَ اللقاءِ

فابن المعتز يصور هذا الوقت ويرسم لوحة ملونة بالأبيض وقد اختلط باللون الأسود ثم يزيد الصّورة توضيحًا بهذا التّشبيه، مثل (ابتسام الشّفة اللمياء)

---

(١) ديوان ابن المعتز (ص١٠).

(٢) ديوان ابن المعتز (ص١٨).

واللمي: سُمْرة الشفتين واللثات يُستحسن[١].

وسمرة الشّفاة عند التّبسم يظهر لون الأسنان البيضاء فيحدث اجتماع اللونين وقد جعل هذه الصّورة مشبهًا به لاختلاط سواد الليل سببًا من الصّبح ويتابع التّشخيص فيصوّر النّجم بإنسان يتأتى فيه الهمُّ والإغفاء (وهم نجم الليل بالإغفاء) (وسُمطت ذوائب الظّلماء) حتى تكتمل الصّورة ويتم المشهد بجزيئاته وألوانه وظلاله ولست أرى هذين البيتين إلَّا لوحة زيتية عكف راسمها على اختيار ألوانه وتحديد درجتها وتشخيص صوامتها، فراح يتملَّى الشّفة اللمياء ذات الأسنان البيضاء وقد ابتسمت فظهر اللونان ظهورًا جليًّا كما أن الظّلماء تجسدت امرأة سُمطت ذوائبها وهمَّ الليل ليغفو ويبتعد عن الأنظار.

وسأورد بعض شواهدٍ له غير محللة حتى يتدبرها المتدبر ويعيش مع لوحات ابن المعتز الفنِّيَّة وعبقريته الشّعرية وخياله الرّائع الرّائق ومن ذلك قوله[٢] في مقطوعة من بيتين يصف هذا الليلة:

وَالنَجمُ في اللَيلِ البَهيمِ تَخالُهُ ... عَينًا تُخالِسُ غَفلَةَ الرُقَباءِ

وَالصُبحُ مِن تَحتِ الظَلامِ كَأَنَّهُ ... شَيبٌ بَدا في لِمَّةٍ سَوداءِ

وقوله[٣] يصف الشّراب في هذا الوقت:

لَبِسنا إِلى الخَمّارِ وَالنَجمُ غائِرٌ ... غُلالَةَ لَيلٍ طُرِّزَت بِصَباحِ

وَظَلَّت تُديرُ الراحَ أَيدي جَآذِرٍ ... عِتاقِ دَنانيرِ الوُجوهِ مِلاحِ

وقوله[٤] يصف لقاء محبوبته في هذا الوقت:

---

(١) لسان العرب (٥/٨٠٤).

(٢) ديوان ابن المعتز (ص١٨).

(٣) ديوان ابن المعتز (ص١٤٥).

(٤) السابق (ص٢٧٦) وانظر على سبيل المثال لا الحصر (ص٤٤ – ٥٣ – ٦٤ – ٧٥ – ٨٦ – ١١٤).

كَم لَيلَةٍ مَحمودَةٍ أَحيَيتُها ... جاءَت بِأَسعَدِ طائِرٍ لَم يَنحَسِ
بَيضاءَ مُقمِرَةٍ لَقيها صُبحُها ... وَثِيابُها في ظُلمَةٍ لَم تُدنَسِ
وَتَوَقَّدَ المَريخُ بَينَ نُجومِها ... كَبَهارَةٍ في رَوضَةٍ مِن نَرجِسِ
كَمَلَت وَتَمَّ نَعيمُها وَسُرورُها ... بِأَحَبِّ زائِرَةٍ وَأَطيَبِ مَجلِسِ

ثم يُشبِّه هذا الوقت بقوله: (كأنَّه غُرَّة مُهْرٍ أشقر) والمُشبَّه به هو الضّمير الرّاجع إلى الصّبح في (كأنَّه) وصورته صورة المفرد، والحق انَّ الضّمير الرّاجع إلى الصّبح لا يعود إليه مجردًا عن تركيبه، وإنما يعود إليه مع تركيبه وهو (الصّبح في طرة ليل مسفر) وإلا تقطَّعت الصّورة، وفقدت تركيبها، وانتزعت من أجزائها، لكن النّحاة والبلاغيين لم يشيروا إلى مثل هذه الحالة، وهي أن الضّمير المفرد عندما يعود هل يعود على قيده وجزئه؟ لكنَّ تذوق الأساليب، والتدبر في الصّور والمشاهد المرسومة، يوجب عود الضّمير على الصّورة كاملة وليس على المفرد فقط، لذا فإن قوله: (والصّبح في طرة ليل مسفر) صورة مركبة وليست من قبيل المفرد المقيد أيضًا؛ لأنَّ قوله: (في طرة ليل) في موقع الخبر، فهو ركن من الجملة لا يمكن الاستغناء عنه حتى يُجعل من قبيل التّقييد ومثل ذلك قوله:

وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ ... كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ

فالضّمير في (كأنه) يعود على الرّوض، ولكنَّه لا يعود عليه مجردًا عن تركيبه، وإنما يعود عليه ملاحظ فيه تركيبه (مغسول بليل مُمْطر) فيكون من قبيل تشبيه المركب صينية الرّوض وقد غُسل بليل مُمْطر، والمُشبَّه به (دراهم في منشر)، مفرد مقيَّد وإن كان النّظر إلى الصّورة الكلية يربك هيئة الدّراهم البرَّاقة المتلألئة في منشر ولا يمنع أن يكون التّشبيه المفرد المقيد هيئة متكاملة، وصورة تامة يكون القيد هو الَّذي يحدد أجزاءها ويرسم ملامحها، ويقوم بتوصيفها خير توصيف.

الغُرَّة: بياض في الجبهة وفي الصّحاح في جبهة الفرس، فرسٌ أغرّ وغرّاء وقيل: الأَغَرّ من الخيل، الَّذي غُرَّته أكبر من الدّرهم، قد وسطت جبهته ولم تُصب واحدة فب العينين، ولم تُمِلعلى واحد من الخدين ولم تَسِلْ سُفْلًا[١].

والمهر: ولد الرّمكة والفرس، والأنثى: مُهْرة، والجمع مُهَر ومُهَرات[٢].

والأشقر: الأشقر من الدّواب، الأحمر في مُغَرَّة حُمْرةٍ صافية يحمرّ منها السّبيب[٣] والمعرَفَة[٤] والنّاحية فإن اسودَّ فهو الكميت والعرب تقول:

أكرم الخيل وذوات الخير منها شُقْرُها[٥].

فابن المعتز يشبه هذا الوقت وما فيه من خمرة وقت طلوع الشّمس وما يتداخله من النّور والضّياء بفرس أشقر صافي الحمرة في غُرَّته بياض وهذا الوقت أقل بكورًا من قوله: (والصّبح في طرّة ليل مسفر) وكأنَّه نظر إلى انمحاء والليل وذهابه وتسلل النّور والضّياء فيه، فالليل سائرٌ ذاهبٌ، والصّبح قادم زاحف، وهذا الوقت لا يتوقف عن السّريان لكل الأوقات، ولذا حسن هذا التّشبيه وأصاب موقعه، وليس مخالفًا لوصف هذا الوقت، فقد لوَّن هذا الوقت بلون الجمر المُتَّقِد داخل إتاءٍ أسود في قوله[٦]:

يا لَيلَةً بِتُّ فيها دائِمَ السَهرِ   أَرعى النُجومَ حَليفَ الهَمِّ وَالفِكرِ
كَأَنَّها حينَ ذَرَّ اللَيلُ ظُلمَتَهُ   جَمرٌ جَلَتهُ الصَبا في مُصطَلىً خَضِرِ

والبيت الثاني تصوير للنجوم في هذا الوقت وما عليه من انتشار

(١) لسان العرب (غرر) (٣٢٣٤/٥).
(٢) السابق (مهر) (٤٢٨٧/٦).
(٣) السبب من الفرس: شعر الذنب والعرف والناحية، لسان العرب (سبب) (١٩١١/٣).
(٤) بالفتح: منبت عُرف الفرس من الناحية إلى المنسج، وهو ما بين العُرف إلى موضع اللدن، اللسان (عرف) (١٩٠٠/٤) (نسج) (١٤٠٦/٦).
(٥) لسان العرب (شقر) (٢٢٩٧/٤).
(٦) ديوان ابن المعتز (ص٢٠٨).

الظّلمة وظهور النّجوم المنيرة فيه ولكنَّه جاء بهذا الخيال ليؤيك الليل في صورة إنسان وقد أمسك الظّلمة ونثرها فانتشر الظّلام فـ (ذَرَّ الشّيء يَذُرَّه: أخذه بأطراف أصابعه ثم نثره عبى الشّيء، وذَرَّ الشّيء يَذُرَّه: إذا بدده)[١] فاللفظة من الأضداد، لمن المعنى الاول (نثر) هو الَّذي يتلائم مع السّياق، فهو يصور النّجوم في هذا الوقت الَّذي انتشر فيه الظّلام وهي فيه مثيرة مضيئة بـ(جمر جلته الصّبا في مصطلى خضر) النّجوم تكون أكثر إنارة وظهورًا في الظّلام لا في وقت الصّباح فهو تخييل بالاستعارة المكنية حيثُ شبه الليل بإنسان ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفته (ذَرَّ) دليلًا عليه، وهي جملة حالية تبين هيئة هذا الوقت فقد رسم له صورة موقد اشتدَّ سواده بداخله جمر متوقد مشتعل، والسّواد حين يشتدُّ يوصف بالخضرة؛ لأن العرب تسمي الأسود أخضر والأخضر أسود[٢]، وقالوا لليل: أخضر، والخضرة في ألوان النّاس: السُّمْرة، قال اللَّهَبِي:

وأنا الأخضر من يعرفني؟ أخضرُ الجِلدة في بيت العَرب

يقول: أنا خالص؛ لأن ألوان العرب السُّمْرة أي: أراد أسود الجلدة أو أراد أنَّه من خالص العرب وصميمهم؛ لأنَّ الغالب على ألوان العرب الأُدْمَة وأراد بالخضرة سُمرة لونه[٣]....

لكن غالب تشبيهاته لهذا الوقت تراه يستعمل اللون الأسود وقد اختلط باللون الأبيض أو العكس، فمرة يزيد مساحة السّواد ويجعل البياض خطوطًا وعلامات فيه دلالة على أول السّحر واشتداد ظلمته،

---

(١) لسان العرب (ذرر) (١٤٩٤/٣).

(٢) السابق (سود) (٢١٤٣/٣).

(٣) لسان العرب (خضر) (١١٨٢/٢).

ومرة يريد مساحة اللون الأبيض ويجعل الليل خطوطًا سوداء فيه، دلالة على ظهور الصّبح وانتشار نوره، ومرة يسوِّي بينهما والتشبيه مفرد مقيد، حيثُ شبَّه النّجوم في هذا الوقت (حين ذَرَّ الليل ظلمته) بمركب، جمر جلته الصّبا في مصطلى خضر، وقد أكثر من عناصر التّركيب فهو لم يشبه النّجوم في هذا الوقت بجمر فحسب، ولا بجمر جلته الصّبا وإنما بجمر جلته الصّبا في مصطلى خضر لتتم صورة المُشبَّه به وتتطابق مع المشبه، ويُلحظ في هذا التّشبيه اللون الأحمر المائل للاصفرار المتحقق في الطّرفين، كما يُلحظ فيه هيئة الجمر المتقاربة في المصطلى الخضر، بهيئة النّجوم فيه المضيئة في السّماء المظلمة.

كما داخل التّشبيه الاستعارة المكنية في قوله: (ذَرَّ الليل ظلمته) وقوله: (جلته الصّبا) حيثُ شبه الصّبا بإنسان يجلو، واختيار لفظة (الصّبا) وهي ريح تستقبل القبلة فهي تَحِنُّ إلى الكعبة وتصبو إليها ويكون مهبَّها من مطلع الثريَّا إلى بنات تعن وهي ريح طيبة النّسيم وقد أشارت كتب التّفسير إلى أن ريح الصّبا هي الَّتي سخَّرها الله لنبيه سليمان (عليه السّلام) غدوّها شهر ورواحها شهر وكذلك فهي الرّياح الَّتي نصر الله بها النّبي (صلَّى الله عليه وسلم) في غزواته[1] يناسب المشهد ويُجَمِّل الصّورة ويزيدها تأنقًا وتألقًا.

---

(١) راجع: لسان العرب (صبا) (٢٣٩٨/٤) وتفسير أبي السّعود(٤٤٧/٤)، مكتبة الرِّياض الحديثة، من دون تاريخ، وتفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (مجلد ٩، ١٥٨/٢٢) دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، وتفسير ابن كثير (٥٢٨/٣)، من دون مطبعة وتاريخ طبع.

ثانيًا: وصف الوحش والرِّياض.

في قوله:

٢- ... وَالوَحشُ في أَوطانِها لَم تُعذَرِ

٣- جَلا لَنا وَجهَ الثَّرى عَن مَنظَرِ كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ

٤- مِن أَبيَضٍ وَأَحمَرٍ وَأَصفَرِ وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ

٥- تَخالُهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوَّرِ

٦- كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ وَأَدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ

٧- وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ

٨- أَو كَتَفسيرِ مُصحَفٍ مُفَسَّرِ وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ

٩- كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

فقوله:

... وَالوَحشُ في أَوطانِها لَم تُعذَرِ

جملة حالية تصف هيئة الوقت وهدوءه وسكونه، وهذه من تمام المتعة به بعدم كثرة الحركة والاضطراب، والصّخب والضّوضاء، الَّتي تعكر الصَّفْو وتجلب الهمّ، والوحش: كلّ شيء من دواب البرِّ لم يُسْتَأنس(١).

وصاحب الحال الضّمير في (قد اغتدى) العائد على الشّاعر وهذه هي الحالة الثانية والأولى قوله: (والصّبح في طرة ليل مسفر) سياتي تعديد الأحوال وهي المناظر والمشاهد الَّتي سيذكرها والتي شاهدها في طريق رحلته، والواو في قول: (والوحش في أوطانها لم تعذر) واو الحال وليست عاطفة ولا يصح أن تجمع الواو بين معنيين في آنٍ واحد بأن تكون عاكفة وهي واو الحال؛ لأنَّ في ذلك تضارب في المعنى تأباه معاني الحروف، وقوله: (لم تُعْذَر) أشار محقق

---

(١) لسان العرب (وحش) (٦/٤٧٨٤).

الدّيوان إلى أن معناها أي: لم تُشَدّ بالعِذَار[1].

بأن تكون عاطفة وهي واو الحال؛ لأنَّ في ذلك تضارب في المعنى تأباه معاني الحروف، وهو يتماشى مع بعض معاني الكلمة في المعاجم اللغوية ففي اللسان: ... ورملة عذراء لم تُوطأ ... وطالت عُذْرة الفرس: وهو شعر ناصيته، وأعذر الفرس: جعل لها عَذَارًا، وعَذَرَه: وضعه عليه[2] وهو معنى قلق لا يتماشى مع السّياق؛ لأنَّه يتكلم عن الوحش، فلا يُتَصَوَّر وضع العذار واللجام له، وهو لا يركب أصلًا، وقد كانت رواية أبي بكر الصّولي[3] أوضح حيثُ ذكر روايتين، إحداهما (حتى بدا في ثوبه المعصفر) فتكون امتدادًا لوصف هذا الوقت فهو يقول:

والصّبح في طُرَّة ليل مسفر ... كأنَّه غرة مُهر أشقر ... حتى بدا في ثوبه المعصفر

وهي كناية عما عليه هذا الوقت من الجمال، واختلاط الألوان، وسكون الحركة، ورواية أخرى (والوحش في أوطانها لم تَذْعَر) أي: لم تُنَفَّر وتُخَوَّف، فتترك أماكنها، والجملة كناية عن الخروج مبكرًا

ثم يأخذ ابن المعتز في وصف المناظر الطّبيعية الّتي يزدهي بها وجه الثَّرى، فيقول:

جَلا لَنا وَجهَ الثَرى عَن مَنظَرِ ... كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ
مِن أَبيَضٍ وَأَحمَرٍ وَأَصفَرِ ... وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ
تَخالُهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ ... وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوِّرِ
كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ ... وَأَدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ

---

(١) ديوان ابن المعتز (ص٢٤٣).

(٢) أساس البلاغة، للزمخشريّ (عذر) (ص٥٥٢).

(٣) أشعار أولاد الحافاء (ص٢١٢).

فيتخيَّر لفظ (جلا) بمعنى الوضوح والظّهور والبيان وقوله: (وجه الثَّرى) مفعول به فاعله الضّمير يعود على (الصّبح) في قوله: (الصّبح في طرة ليل مسفر) وبهذا التركيب يكون هذا الوقت هو الَّذي بسببه ازدهرت الأرض بالورود وكشفت عن جمالها، ونشرت حسنها وتساقط النّدى على الرِّياض كالدّراهم في منشر ... ويكون قوله: (والصّبح في طرة ليل مسفر) هو المعنى الرّئيس الَّذي انبثقت منه معاني القصيدة من صور ومشاهد، وهو المعنى الَّذي دندن حوله ابن المعتز من مطلع قصيدته إلى نهايتها، و(عن) في قوله: (عن منظر) بمعنى (من)، ويصح جعلها (في) أي: أخرجه في كذا وكذا[١].

وفيه استعارة مكنية حيثُ شبه الأرض بإنسان ثم حذفه وأبقى أهم جزء فيه (وجه) ووجه التعبير بوجه الثَّرى: أن الوجه أشرف شيء في الإنسان حتى استعمل في الشّرف والرّفعة يُقال: وجوه البلد، أشرافه، ويُقال: هذا وجه الرّأي، أي: هو الرّأي نفسه[٢]، وهو كثير الدَّوران في هذا المعنى على طريق المجاز، يقول الزّمخشري: "...ومن المجاز هذا وجه الثوب، ووجه القوم، وهؤلاء وجوه البلد، ورجل وجيه بيّن الوجاهة وله جاه وحُرْمة[٣]"

ووجه الثَّرى: أي: ظاهر الأرض؛ لأن فيه تنبت الأشجار والزّروع والنّباتات ويظهر جماله وإبداع الخالق فيه باختلاف المناظر وتنوع الأشكال والأحجام والألوان والثمار...، وقوله: (منظر) المنظر: ما نظرت إليه أو ساءك ... المَنْظَرة: منظر الرّجل إذا نظرت إليه فأعجبك[٤].

---

(١) الجنى الدّاني في حروف المعاني، للمرادي، ت: فخر الدّين قباوة، والأستاذ: محمد نبيل فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنو ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

(٢) لسان العرب (٤٧٧٥/٦).

(٣) أساس البلاغة (ص٨٩٢).

(٤) لسان العرب (نظر) (٢٤٦٦/٦).

وهذه جملة تكشف عن إبداع الخالق في صنعته بكسوة ظهر الأرض بهذه المناظر الخلَّابة وقد جاء التشبيه يؤكد هذا المعنى ويقويه (كالعَصْب أو كالوش أو كالجوهر) وقد شبه وجه الثَّرى بثلاثة أشياء: العَصب والوش والجوهر، والعَصْب: بُرود يمنية، يُعْصَبُ غزلها أي: يجمع ويُشَدُّ ثم يُصْبَغُ ويُنْسَج فيأتي مَوْشِيًا لبقاء ما عُصِبَ منه أبيض لم يأخذه الصّبغ.

وقيل: هي: بُرُود مخططة[1] (والوش: ... والوَشْ في اللون خلط لون بلون وكذلك في الكلام ... ووش الثوب وشيًا .... ووشَّاه: تمتمه ونَقَشَه وحسَّنه)[2] (والجوهر: كلّ حجر يُستخرج منه شيء يُنتفع به، وجوهر كلّ شيء ما خُلِقَتْ عليه جِبِلَّتُه)[3] و(أو) في قوله: (العصب أو كالوش أو كالجوهر) للتخيير[4] فهو يخيِّر المخاطب أن يرى وجه الأرض في واحد من هذه الصّور فكلها تدل على الجمال والرّوعة والحسن.

وقد أورد ابن المعتز هذه الألفاظ الثلاثة (العصب أو كالوش أوكالجوهر) وهي تجمل الألوان المتداخلة والتي تضفي الجمال والبهجة في ثوب التشبيب وهي تشبيهات مستقلة أي: وجه الثَّرى كالعَصْب، ووجه الثَّرى كالوش، ووجه الثَّرى كالجوهر، وهو من التشبيه الَّذي تعدد طرفه الثاني فهو من قبيل تشبيه الجمع[5] وتعدد المُشبَّه به يدل على كثرة أوصاف المُشبَّه وأنَّه انتقى من هذه الأوصاف أليقها وأحسنها وقد بقى كثير غيرها لم تذكر وسيأتي بأوصاف أخرى في وصفه للروض الَّذي يغطي وجه الثَّرى.

---

(١) لسان العرب (عصب) (٤/٢٩٦٥).

(٢) السابق (وشى) (٦/٤٨٤٦).

(٣) السابق (حصر) (١/٧١٢).

(٤) انظر: الجنى الداني (ص٢٢٨).

(٥) مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي(٣/٤٣١)، شروح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، من دون تاريخ.

وقد تخيَّر ابن المعتز ألفاظ المُشبَّه به وهو العصب والوش والجوهر ليناسب ويلائم ما عليه ظهر الأرض من الجمال الأخَّاذ والمناظر الآسرة فاختار العَصْب أولًا ليحكي قصة هذه الألوان المختلطة والمختلفة الَّذي عليها وجه الأرض وزروعه وأشجاره من اختلاف في أحجام وأشكال وألوان ثم اختار الوش ثانيًا؛ ليوكد هذا المعنى ويقويه ثم ذكر الجوهر ثالثًا؛ ليفيد أنَّ هذا الجمال الَّذي غطَّى وجه الثَّرى ليس جمالًا عديم الفائدة ليس له إلَّا رُوَاء المنظر وبهاء الشّكل وإنَّما هو منتفع به للمخلوقات وهذا ما يقادّ من معنى لفظة (جوهر)؛ إذ لا يقلق إلَّا على كلّ جميل نافع.

ولا ترى أثرًا للتدرج في هذه التشبيهات فلن تستطيع القول: بأنَّه بدأ بالأدنى وهو العصب ثم الأعلى وهو الوش ثم الأعلى وهو الجوهر أو العكس فكلها تشبيهات تدل على أشياء جملة أظهرت جمال المنظر وخلابته، لكن تأخُّر لفظة (الجوهر) لها فائدة جليلة وهي أن نفاسته ظاهرًا وباطنًا شكلًا ومضمونًا.

فمع ما يحويه من جمال الظّاهر فكذلك هو نفيس القيمة جليل المنفعة ويمكنك أن تغيّر النّظم إلى: كالوش أو كالعصب أو كالجوهر، ولا ترى خللًا ولا ترى نتوءًا في الأسلوب، ولا يتأثر المعنى بالتقديم أو التأخير، وهذا من الفروق بين النّص القرآني وبقية النّصوص الأخرى، إذ في الأسلوب القراني وكذا الأسلوب النّبوي، ترى كلّ تقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير، حتى الحركة إثباتها أو حذفها له سرٌّ مُراد، وغرضٌ مبتغى، وهذا ليس تنظيرًا لأسلوب ابن المعتز بالأسلوب القرآني أوالأسلوب النّبوي، ولكنَّها خاطرة قدحت في ذهني أحببتُ إثباتها.

وقد فصَّل في البيت الرّابع والخامس:

مِن أَبيَضٍ وَأَحمَرٍ وَأَصفَرِ   وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ
تَخالُهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ   وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوَّرِ

ألوان هذه المناظر الَّتي تكسو وجه الثَّرى فقال: (من أبيضٍ وأحمرٍ وأصفر) (من) في قوله: (من أبيضٍ وأحمرٍ وأصفر) جنسية أي: من جنس الأبيض والأحمر والأصفر، ويصح حملها على التبعيضية أي: من بعض الأبيض والأحمر والأصفر[(١)]، واللون الأبيض رمز للنَّقاء والنّظافة والوضوح كما أنَّه رمز للطهارة والنّور والغبطة والنّصر والسّلام .... واللون الأبيض مريح للعين مهدئ للنفس فيه إثارة وإبهار[(٢)] وقد ذكر الزّوزني[(٣)] في شرحه لقول طرفة[(٤)]:

ندامايَ بيضٌ كالنّجومِ وَقَيْنَةٌ ... تَرُوحُ علينا بين بُرْدٍ وَمُجْسَدِ

أربعة أوجه للوصف بالبياض فقال: (...وصفهم بالبياض لإشراق ألوانهم وتلألؤ غُرَرِهم في الأندية والمقامات، إذ لم يلحقهم عار يُعَيَّرون به فتتغيَّر ألوانه، أو وصفهم بالبياض بنقائهم من العيوب؛ لأن البياض يكون نقيًّا من الدَّرن والوسخ، أو لاشتهارهم لأن الفرس الأغرَّ مشهور في ما بين الخيل والمدح للبياض في كلام العرب لا يخرج من هذه الوجوه)

كما أن اللون الأحمر (رمز للعواطف الثائرة، والحب الملتهب، القوة الجارفة، والنّشاط المُتَّقد، وهو رمز الدِّماء الحارة، ورمز النّار المشتعلة[(٥)]...) (ويُستعمل في بعض الأحيان للدلالة على الغضب والقسوة والخطر[(٦)]..) وهذا اللون من المتناقضات الَّتي تدل على المعنى وعكسه، يدل على الفرح والسّرور،

(١) رصف المباني (ص٣٢٢).

(٢) انظر: الرسم بالألوان في القرآن (ص٢٦٧).

(٣) شرح المعلقات السبع للزوني (ص٤٩) ط: أولى، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) ديوان طرفة بن العبد (ص٤٤) ت: فوزي عطوى، دار صادر بيروت سنة ١٩٨٠م.

(٥) انظر: الرسم بالألواف في القرآن (ص٢٢٣).

(٦) السابق، نفس الصحيفة.

والحزن والكآبة، وعلى البهجة والفُتوَّة، وعلى الضُّر والدِّماء والدَّمار، والسّياق هو الَّذي يحدد دلالته، ويومئ إلى مراده، وهنا اختاره ابن المعتز ليدل على الزّهور الجميلة والمناظر الجذابة والألوان الخلَّابة، إذ هو في سياق الحديث عن وصف هذه المناظر الَّتي تغطي وجه الثَّرى.

واللون الأصفر هو (رمز للذهب، ذلك المعدن النّفيس الَّذي يعني الثراء والعظمة والقوة، وفي نفس الوقت لو اصتبغ وجه الإنسان باللون الأصفر فهذا يعني الضّعف والمرض(١)...)

ومع أن هذا اللون من المتناقضات إذ يدل على المعنى وعكسه إلَّا أن المتأمل في شعر ابن المعتز يجده لم يستعمل اللون الأصفر إلَّا في السّرور والبهجة فهو لون الشّمس الذهبي ولون الخمر العتيقة الأصيلة، ولون الثياب المزركشة والورود والزّروع كما في هذا الموطن، وغيره من شعره.

لكنَّ اقتصار ابن المعتز على هذه الألوان الثلاثة ليست له علة معلومة لا في الذكر ولا في الترتيب إذ العصب والوش والجوهر لا يقتصران على هذه الألوان الثلاثة حتى يقتصر عليها ابن المعتز، كما أنَّ هذه الألوان الثلاثة ليست أصلًا للألوان حتى تشمل غيرها وإلَّا فأين اللون الأسود والأخضر والأزرق، وهي عنوان الجمال في الألوان أيضًا؟!

هل لأنَّه لا يريد أن يستقصي، ولا يستطيع أن يستقصي في النّص الشّعري المحكوم بالوزن والقافية من ناحية، ومن ناحية أخرى هو يعجز عن استقصاء اللامتناهي: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. [النحل: ١٨].

كما أنَّ ترتيب هذه الألوان ليست له عِلَّة إذ يصح أن تقول: من أصفر وأبيض وأحمر، كما يصح أن تقول: من أبيض وأصفر وأحمر، دون ان يختلَّ

(١) السابق (ص١٤٩).

الوزن أو المعنى.

وقوله: (وطارفٍ أجفانه لم ينظر) جملة حالية، وصاحب الحال هو الضّمير في قوله: (قد اغتدى على الجياد الضُّمَّر) العائد على الشّاعر، يقول الصّولي[(١)]: (أي: وربما ترى وردًا كالآدمي الَّذي يطرف بأجفانه مع أنَّه لا يرى، وربما يظنُّه الرّائي أفواهًا لا تتكلم) فقد تخيَّل ابن المعتز الورود في بساتينها، ولم تتَّضح بعد، إنسانًا قد أغلق فمه، وقد أثبت للورد طارفًا وأجفانه ونظرًا، وفيه تآلف وتناسب بين صورة الغنسان الَّذي أغلق فمه وبين الورود الَّتي كادت أن تتفتح، وتصوير الورود بإنسان هذه صفته يعطي الصّورة دفئًا وحياة واخضرارًا، وكأنَّه يرى أُنَسَاء وأحبابًا يحادثهم ويسمع منهم، ويعجب بصفاتهم، ويهنأ بالجلوس معه، لكن يتبقَّى على ابن المعتز أن النّظر إلى الأجفان لا يتحقق، ويستحيل حدوثه إلَّا عند النّظر في المرآه، أما غير ذلك فلن يستطيع الإنسان أن يرى أجفانه إلَّا إذا أراد ابن المعتز أنَّه لم ينظر ولن ينظر، فهو يخبر عن حقيقة ماثلة، ولا يريد أنَّه لم ينظر الآن وقد ينظر فيما بعد.

وقوله: ...... (وفاتق كاد ولم ينوِّر)

وعند أبي بكر الصّولي[(٢)]:

وَفاتِقٍ كادَ وَلَمْ يُنَوِّرِ كَأَنَّهُ مُبْتَسِمٌ لَمْ يَكْشِرِ

وهو تلفيق فقط بين الشّطرات لا يخلُّ بالمعنى وقوله: (فاتق كاد ولم ينوِّر) جملة حالية تبيِّن ما عليه وجه الثَّرى من جمال تلك المناظر وقد تعدد الحال؛ لأنَّه يريد أن يعدد المناظر والمشاهد الَّتي مرَّ عليها، وصبغت وجه الثَّرى بالجمال، وغطته بالحسن كما أنَّها كناية عن جمال وجه الثَّرى في هذه المناظر، واختيار لفظة (فاتق) لقرب تفتح الورود، مناسبة للصورة، فالفتق هو:

(١) أشعار أولاد الصولي وأخبارهم (ص

(٢) أشعار أولاد الخلفاء (ص

(فَتَقَ الطيب يَفْتُقه فتقًا: طيَّبه وخَلَطَه بعودٍ وغيره وكذلك الدِّهن.

قال الرّاعي:

لها فارة زقراء كلّ عَشِيّةٍ ... كما فتق الكفور بالمسك فَاتِقُه

(ذكر إبلًا رعت العشب وزهرته، وأنَّها نَدِيَتْ جلودها، ففاحت راحة المسك)[1]

وفيها استعارة تبعية، حيثُ شبَّه انشقاق الثمرة من أكمامها بالفتق ثم يشبهه بـ (مبتسم لم يكشِر) والكَشْر: بدوّ الإنسان عن التبسُّم[2] فهو يريد أن يصور جمال هذه الورود، وطيب رائحتها فاختار هذه اللفظة لتؤدي هذا المعنى.

وفيها استعارة تبعية حيثُ عبَّر عن انشقاق الزّهرة من أكمامها بقوله: (فاتق) وفيها إيحاء بطيب الرّائحة ما لا يوجد في لفظة الشّق أو قرب بدُوِّ الزّهرة ومجيء مُشبَّه به مقيَّدًا (لم يكشِر) هو الَّذي حسَّن التشبيه؛ لأنَّه لو قال: كأنَّه مبتسم، كان قد باعد في وجه الشّبه فلمَّا أتى بالقيد ناسب بين الطرفين

في وجه الشّبه، وهو إيغال أفاد معنى جديدًا يتم المعنى بدونه، لكن يبقى خلل ونتوء في وجه الشّبه؛ لعدم مشابهة المبتسم فقط للنُّور الَّذي كاد أن يتَفتَّق ولم يتفتَّق بَعْدُ، فمجيء الإيغال في المُشبَّه به هنا هو الَّذي رسم صورة المُشبَّه كاملة، ووجه الشّبه: قرب ظهور الشّيء مع أنَّه لم يظهر، والطرفان حسِّيان والوجه عقليّ.

وإيجاد صورة للمُشبَّه على هذه الحالة من القُرب، تُعدُّ من مقدرة الشّاعر، واقترابه من الحدائق الغنَّاء، المليئة بالزّهور المُتفتحة، وغير المُتفتحة، وهكذا كانت بيئة ابن المعتز وتربيته، وهذه الجملة (وفاتق كاد ولم ينور) تحمل معنى قوله السّابق: (وطارق أجفانه لم ينظر) وتشبيه المُشبَّه بأكثر من صورة، فيه

---

(١) لسان العرب (فتق) (٥/٣٣٤٢).

(٢) السابق (كشر) (٥/٣٨٨١).

من الخيال الرّائق والتجوُّز المفيد، وتنوُّع وتعدُّد صورة المُشبَّه به، مناسب وصفه لهذه الحدائق والبسط فيها يُعدُّ تفننًا ومقدرة من الشّاعر على إيراد الصّورة بأكثر من وجه وأكثر من تركيب؛ ليضفي الأُنس والبهجة في نفس السّامع، وليعطي المشهد حقَّه من الكشف والإبانة والتجسيد، والاختلاف بين صورتي المُشبَّه به (تخاله العين فما لم يقفر) (كأنَّه مبتسم لم يكشر) أنَّ المُشبَّه في الصّورة الأولى (وطارف كاد ولم ينور) أنَّ الورود لم تتفتح بعد ولكن في طريقها إلى التفتح، عبر عنها بكاد وجاءت صورة المُشبَّه به (فما لم يقفر) قريبة من الشّبه وليس هو، فلم يشر إلى أنَّ الفم كاد أن يقفر أو اقترب أن يقفر، فالقيد لا يرسم صورة المُشبَّه كما رسمه في الصّورة الثانية (كأنَّه مبتسم لم يكشر)؛ إذ حدَّد فيه الابتسامة وأنَّها في بدايتها ولم يصل إلى مرحلة الضّحك الكامل الَّذي يكون فيه انفتاح الفم كاملًا، أو في الصّورة الثانية إضافة الرّائحة الطيبة في قوله: (فاتق) وهي ليست موجودة في الصّورة الأولى، وهذا ما يُمكن أن يُقال في الاختلاف بين الصّورتين.

وقوله:

...	وَأَدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ
وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ	كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ
أَو كَتَفسيرِ مُصحَفٍ مُفَسَّرِ	وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ
كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ	تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

ذكر في هذه الأبيات من مظاهر الطبيعة: الغُدْران، الليل، المطر، الشّمس والجوّ المُعتدل، والسّراج الأزهر، واستقى منها تشبيهاته واستعاراته وزيَّن بها مشاهده، وقوله:

كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ	وَأَدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ

رواية الصّولي:

وَأَدْمُعُ الْغُدْرانِ لَمْ تُكَدَّرِ   كَأَنَّها دَراهِمٌ فِي مِنْثَرِ

ففيه تقديم وتأخير بين شطري البيت يُخلّ بالمعنى، وعلى رواية الصّولي شبه أدمع الغُدْران الَّتي لم تُكدَّر بالدَّراهم في منشر.

والواو في قوله (وأدمع الغُدْران لم تُكدر) واو الحال، والجملة حالية تبيِّن حال الغُدْران وما عليه من الصّفاء والنّقاء وجمال المنظر، وهي كناية عن جمال الغُدْران وصفائها في هذا الوقت، فهو يشبه الغُدْران بالعيون الدَّامعة على سبيل الاستعارة المكنية، وقد جعل لها أدمعًا، وربما توهَّم متوهِّم أن لفظ (أدمع) يشي بالحزن والقلق والاضطراب؛ إذ الأدمع غالب نزولها فيما يعرض للإنسان من هم وضيق، وهو في مقام عرض مناظر مُبهجة، وصور رائقة، ولكن اللفظ جاء في موطنه معبِّرًا عن صفاء الغُدْران، فالدُّموع تضرب مثلًا للصفاء، ويعبَّر بها عن مطر السّماء والسّحاب، وعن نداوة الثَّرى، وعن امتلاء الإناء مجازًا.

يقول الزّمخشري(١): "... أصفى من الدَّمعة ... ومن المجاز بكت السّماء ودمعت السّحاب، وثرى دامع: ندٍ، ومكان دامع الثَّرى، وأدمع إناءة: ملأه حتى يفيض... وجفنة دامعة: ملأى..."

وهذه الجملة في رواية أبي بكر الصّولي مشبهة بقوله: (كأنَّها دراهم في منثر) وهو تشبيه يريك جمال هذه الغُدْران وصفائها؛ فالمُشبَّه به تلوح فيه صفة التلألؤ والضّياء، ولك أن تتصور دراهم في منشر أو منثر، فترى انعكاس أشعة الشّمس على هذه الدَّراهم ذات اللون الفضيّ، فتتلألأ ويظهر بريقها ولمعانها، ووجه الشّبه التلألؤ والضّياء في كلٍّ، وربما توهَّم متوهِّم أنَّه لو قال: (وأدمع الغُدْران في تطهُّرِ) لكن أولى وأليق؛ إذ فيه نصٌّ على صفة الصّفاء والنّقاء، ففرق أن تقول: فلان جيد، وفلان ليس بسيء، والغُدْران صافية، والغُدْران ليست

---

(١) أساس البلاغة (دمع) (ص٢٦٦).

مكدَّرة.

لكن السّياق يُحتم هذه الأسلوب أو مثله، إذ مراده: أنَّ صفاء الغُدْران لم تمتد إليه يد لتكدِّر صفاءه؛ لأنَّ الوقت لا زال باكرًا لم يخرج أحد بعد، ولم تمتد إليه يد لتكدّر صفاء هذه الغُدْران.

وقوله:

وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ

منظر آخر من مناظر الطبيعة، وإن كانت قد سبقت الإشارة إليه في قوله:

جَلا لَنا وَجهَ الثَرى عَن مَنظَرِ كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ

لكنَّه خصص الرّوض هنا، وما عليه من قطرات النّدى الفضية؛ إذ الليل قد غسله بمطره، وهو من ذكر الخاص بعد العام؛ للاهتمام والعناية به، وأصل العبارة: (والرّوض مغسول بمطر نزل في الليل) لكنَّه بالغ فجعل الليل المُمْطر هو الَّذي غسل الرّوض، ففي الأسلوب مجاز عقليّ في قوله: (بليلٍ مُمْطر) علاقته الزّمانية، فالليل لا يُمطر، وإنَّما يُمطَر فيه، كقولك: نهاره صائم وليله قائم، فالنّهار لا يصوم، وإنَّما يصام فيه، والليل لا يقوم وإنَّما يقام فيه، لكن في قولك: نهاره صائم، وليله قائم، إسناد الصّيام إلى النّهار، والقيام إلى الليل، وفي قوله: (بليل مُمْطر) لا إسناد فيه، وإنَّما (مُمْطر) صفة لليل، لكن بعض البلاغيين اعترضوا على تعريف الخطيب للمجاز العقليّ بحصره في الإسناد، وجعلوا النِّسَب الإضافية الَّتي ليس فيها إسناد من قبيل المجاز العقليّ، كقوله تعالى: (مكر الليل) أي: مكركم في الليل والنِّسَب الإيقاعية كقولك: قوَّمتُ الليل، وأجريتُ النّهر؛ لأنَّ فيه إيقاع الفعل كما يُقع على المفعول به على ما ليس بمفعول به، ومنه ما يُتوصل إليه ذلك المسند إلَّا بحرف، فيكون المراد بالمفعول ما يُتوصل إليه فعل الفاعل بنفسه أو بحرف، فنحو قولهم: أسلوب حكيم، مما أُسند فيه إلى المفعول بواسطة الحرف؛ إذ الأصل: أنَّ الشّخص

حكيم في أسلوبه، وكذا الضّلال البعيد؛ إذ الأصل: أنَّ الكافر بعيد في ضلاله[1].

فقوله: (بليل مُمْطر) من قبيل المجاز العقليّ بعلاقة الزّمانية، وإن لم تدخل في تعريف الخطيب بالمجاز العقلي؛ لكنَّه داخل فيه على تخريجات غيره من البلاغيين، ويمكن أن يُخرَّج الأسلوب على الاستعارة المكنية، حيثُ شبه الليل بما يُغسل به ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفة (مغسول) وفيه دلالة على كثرة المطر النّازل بالليل حتى أصبح الليل مطرًا ينزل في كلّ بُقعة وكل اتجاه، يؤكِّده قوله: (والرَّوض مغسول)؛ إذ قد غسل المطر الرّوض جميعه، ولم يترك شيئًا من لم يُغسل، واختار الجملة الاسمية (والرَّوض ...) للدلالة على ثبوت واستمرار هذا المنظر البديع، كما أنَّ الجملة في موقع الحال؛ لتبيِّن حال الرّوض وجماله في هذا الوقت، وهي كناية عن الجمال والحسن الكائن في هذا الرّوض، وتشبيهه بقوله: (كأنَّه دراهم في منثر) واختيار كأنَّ من بين أدوات التشبيه، كلّ ذلك؛ ليظهر هيئة الرَّوض ونضارته وهو تشبيه مركب بمركب؛ فقد شبه هيئة الرَّوض وهو على هذا الحالة بهيئة الدَّراهم في منشر.

والمتأمل في التشبيه (كأنَّه دراهم في منشر) يرى أن صورته صورة المفرد، فالمُشبَّه الضّمير في (كأنه) العائد على الرَّوض، ولكنَّه لا يعود على الرَّوض معذولًا عن تركيبه، حتى لا تتقطَّع الصّورة، وتحل عراها، وإنما يعود على الرَّوض وقد غُسل بليل مُمْطر فهة من قبيل الترتيب وليس المفرد المقيَّد كما أنَّه يحتمل أن يكون من قبيل المفرد المقيَّد وهو في التركيب أظهر؛ لأنَّه قليل التفصيل ولأن قوله: (بليل مُمْطر) من شرط الصّورة وليس جزءًا منها، والبلاغيون جعلوا القيد شرطًا في الطرف بينما جعلوه في التركيب جزءًا، ولن نستطيع أن نضبط هذه القاعدة بسهولة في الأساليب المتغايرة والمتنوعة، وأيضًا

---

(١) راجع الشروح (١/٢٤٠).

لن نستطيع أن ندخل القيد في التركيب كما فعل بعض البلاغيين[١].

فكل أسلوب له أهدافه ومراميه، فله سياقاته وأحواله، والذوق والسّياق هما اللذان يرجحان القيد مرة والتركيب أخرى، وقد كان البلاغيون من الدّقة والفطنة في التعامل مع الأساليب حين قسموا طرفي التشبيه إلى مفرد مقيد ومركب، ولم يدخلوا أحداهما في الآخر.

والمُشبَّه به (دراهم في منشر) مفرد مقيد، والنّظرة الكلية إلى المُشبَّه به تعطيك هيئة دراهم نشرت في منشر لكنَّها إلى التقييد أقرب؛ لقلة التفصيل في المُشبَّه به؛ ولأنَّ قوله: (في منشر) قيد ووصف للمُشبَّه به وليس جزءًا منه.

وبعد أن شبه الرَّوض بقوله: (كأنَّه دراهم في منشر) شبهه ثانيًا بقوله: (أو كتفسير مصحف مفسَّر) والتشبيه يدل على الوضوح والظّهور الشّديدين في المصحف المفسر قد فُسِّرَ مرة أخرى، فزيد في بيانه ووضوح معانيه واختيار لفظه (مصحف) فيه من القداسة والجلال، وكذا الرَّوض، فكلاهما من إبداع الخالق وفي رواية أبي بكر الصّولي (أو كعشور المصحف المفسر) عواشر القرآن: الآيات الَّتي يتم به العُشْر، والعاشرة: حلقة التفسير من عواشر المصحف وهي لقطة مولدة... ومن ألوان البقر الأهلي الأحمر وأصفر وأغبر وأسود وأصدأ وأبرق ... وعُشَر... والعُشَر: المرقَّع بالبياض والحمرة[٢]

فهو يقصد ما تُزَيَّن به أوراق المصاحف من ألوان وعلامات، لكن قوله: (كتفسير مصحف مفسَّر) قصد به الجمال في إيضاح المعاني الواضحة المفسرة وقوله: (أو كعشور المعشَّر) قصد به ما تُزين به المصاحف والروايتان تتآزران وتتناصران إذ جمعت بين جمال المظهر وجمال المخير، وهو كذلك إذ جماله معنوي في القلوب وحسّيّ في الشّكل والمظهر ومع قرب هذا التشبيه

---

(١) بغية الإيضاح، للأستاذ عبد المتعال الصعيدي (ص٢٢٤).

(٢) لسان العرب (عشر) (٤/٢٩٥٤-٢٩٥٦).

وابتذاله، لكن في اختيار المُشبَّه به مصحف جميل المظهر والمخبر يحكيه هذا الرَّوض المغسول بليل مُمْطر يكشف عن جمال وجلال هذا الرَّوض ذي الإبداع الإلهي والجمال الرّباني فجماله ليست بريشة فنان ولا إبداع عبقري وإنما هو صنع الله الَّذي أتقن كلّ شيء وقوله:

... وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ
كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

مظهر آخر من مظاهر الطبيعة، يرسم صورة الشّمس في هذا الوقت الصّحو وقوله: (والشّمس في إصحاء جو أخضر) جملة حالية تبيّن حال الوقت الَّذي يذهب فيه إلى الصّيد وكأن الرّحلة كانت طويلة فخروجه يبدأ من السّحر ويظل مرتحلًا.

والوحوش في أوطانها لم تعذر، وطارف أجفانه لم ينظر، وفاتق كاد ولم ينوّر، وأدمع الغُدْران لم تكدَّر، والرَّوض مغسول بليل مُمْطر، والشّمس في إصحاء جوٍّ أخضر، وهذه الجملة (والشّمس في إصحاء جوٍّ أخضر) كناية عن جمال الجو واعتداله وإصحاء جوٍّ من الصّحو، وهو ذهاب الغيم، جو صحو، وسماء صحو، واليوم صاحٍ، والصّحو: ارتفاع النّهار(١) وفي قوله: (جو أخضر) استعارة بالكناية حيثُ شبه الجو بلون ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفته وهو قوله: (أخضر)، ووصف الجو بالخضرة كناية عن اعتدال الجو، وعليل نسيمه، فهذا اللون يرمز إلى النّعمة والرّفاهية والهدوء والسّعادة، وهو رمز للنمو والخصوبة، والنّضارة والأمل والحياة والنّيل، واللون الأخضر من الألوان الَّتي تضفي على النّفس الهدوء والسّكينة والطمأنينة والسّرور والسّعادة(٢).

وفيه استعارة تبعية في الحرف (في) حيثُ جعل الجو ظرفًا والشّمس

---

(١) لسان العرب (صحا) (٢٤٠٦/٤).

(٢) الرسم بالألوان في القرآن (ص١٧٣).

مظروفًا وفيه دلالة على تلبُّس الشّمس بالجو كتلبُّس الظّرف بالمظروف الحقيقي وقد شبه هيئة الشّمس وهي ترسل أشعتها في وقت الضّحى بتشبيهنَّ الأول قوله: كدمعة جارية في محجر والثاني قوله: تُسقى عُقارًا كالسّراج الأزهر والجملتان حالان من الشّمس يبيِّنان حالة وهيئة الشّمس.

والمحجر: محجر العين، هو ما دار بالعين من العظم أسفل الجفن(١) وهو تشبيه مركب هيئة الدّمعة وهي تجري في مجرى العين، وهو تشبيه رُعِيت فيه الحركة فأشعة الشّمس في حركتها واضطرابها تشبه الدّمعة الجارية في محجر العين، وفي رواية أبو بكر الصّولي (كدمعة حائرة في محجر) على الاستعارة المكنية حيثُ شبه الدّمعة بإنسان حائر ثم حذف المُشبَّه به وأبقى (حائرة) دليلًا عليه، وهي تبيِّن نوع الحركة في مجر العين، لتزيد توافق وجه الشّبه بين الطرفين، كما يُلحظ فيه الاستدارة، وهي تزيد التشبيه توافقًا ودقةً، والظّرفية في قوله: (كدمعة جارية حائرة في محجر) ظرفية حقيقية؛ فالمحجر ظرف للدموع وهي مظروف فيه، والتشبيه الثاني: تسقى عُقارًا كالسّراج الأزهر، والأزهر من الرّجال: الأبيض العتيق البياض، النّيِّر الحُسْن، وهو أحسن البياض، كأن له بريقًا ونورًا يُزْهر، كما يزهر النّجم والسّراج والضّمير في (تسقي) عائد إلى الشّمس وأداة التشبيه محذوفة والتقدير: كأنَّها تُسقي عُقارًا ... وظاهر الأسلوب أنَّه تشبيه مفر الضّمير في (تسقي) العائد إلى الشّمس ولكنَّه تشبيه مركب؛ إذ التقدير: الشّمس في هيئة إصحاء جوٍّ أخضر بمفرد مقيد (عُقارًا كالسّراج الأزهر) ووجه الشّبه التلألؤ وضياء في كلٍّ وهذا التشبيه رُوعي فيه اللون، فلون أشعة الشّمس وفاعليته من تلألؤ وصُفرة يشبه الخمر العتيقة، الَّتي تميل إلى اللون الأصفر؛ ولذا شبه الخمر بالسّراج الأزهر تأكيدًا لقوله: (تسقى عُقارًا) فقوله: (كالسّراج الأزهر) تشبيه داخل تشبيه لبيان جمال أشعة الشّمس في هذا

---

(١) لسان العرب (حجر) (٢/٧٨٣).

الوقت، وقوله: (الأزهر) إيغال، أضاف معنى زائدًا يتم المعنى بدونه.

كما أنَّ في قوله: (تسقى عُقارًا) استعارة مكنية حيثُ شبه الشّمس بإنسان يشرب خمرًا جيدًا ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفة (تسقي) دليلًا عليه، للدلالة على قوة إضاءة الشّمس، وشدة تلألؤ أشعتها، وأكَّد هذا المعنى بقوله: (عُقارًا كالسّراج الأزهر) وفي استعارة (عُقارًا كالسّراج الأزهر) لأشعة الشّمس في دلالة على كلف ابن المعتز وإغرامه بالخمر وعتاقتها، وأن لها عنده منزلة وفي قلبه لها محبة، حتى استعارها لأشعة الشّمس وهذا واضح في ديوانه؛ إذ ديوانه خمر وغزل إلَّا قليلًا.

وقد استطاع بهذه الجملة التشبيهية التخلص(١) من وصف الرِّياض ونضرتها ووصف الجو المعتدل، بأن يشبه أشعة الشّمس بدمعة جارية في محجر وبأنَّها (تسقى عُقارًا كالسّراج الأزهر) فأرجع الضّمير إلى الشّمس ووصفها بـ (عُقارًا) وهي الخمر، ثم أخذ في وصف الخمر فقال: (مدامة تَعقِر إن لم تُعْقَر) ثم تخلص إلى وصف السّاقي فقال: (تديرها كف غزال أحور) فأرجع الضّمير إلى (مدامة) ... ثم أخذ في وصف الغزال الأحور فقال:

*****

ثم نخلص من وصف السّاقي إلى وصف البازي فضمَّن جملة واحدة وصفين وصفًا للساقي ووصفًا للبازي في قوله: (ويزعر الصّيد ببازٍ أقمر) ففي قوله: (ويزعر) ضمير يعود إلى السّاقي كما أنَّها تتضمن وصفًا للبازي وتصريحًا باسمه (ببازٍ أقمر) ولعل ما ساعد على ذلك أن القصيدة في غرض الوصف وفيها وصف أشياء مختلفة وظواهر متنوعة فضلًا عن مقدرته الشّعرية

---

(١) وهو ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى، ثم عاد إلى الأول، وأخذ في غيره، ثم رجع إلى ما كان فيه، العمدة، لابن رشيق (٢٣٦/١) وتحرير التحبير لابن أبي الأصبغ (ص٤٣٣) والطراز للعلوي (٣٣٠/٢).

وقد جعله ابن أبي الأصبع من أجلِّ أبواب المحاسن ويُسمَّى معرفة الفصل والوصل، وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنَّه وجه الإعجاز في القرآن وهو دقيق في عين الغبي خفيّ، يخفى على غير الحذَّاق من ذوي النّقد(١).

(١) التحرير والتحبير، لابن أبي الأصبع (ص٤٣٣).

ثالثًا: وصف الخمر والسّاقي:

يقول:

مُدامَةً تَعقِرُ إِن لَم تُعقَرِ	تُديرُها كَفُّ غَزالٍ أَحوَرِ
ذي طُرَّةٍ عاطِرَةٍ كَالعَنبَرِ	وَمَبسِمٍ يَكشِفُهُ عَن جَوهَرِ
وَكَفَلٍ بِسَفلِ فَضلِ المِئزَرِ	تُخبِرُ عَيناهُ بِعِشقٍ مُضمَرِ
يُعَلِّمُ الفُجورَ مَن لَم يَفجُرِ	وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أَقمَرِ

وقد ذكر في هذه الأبيات من مظاهر الطبيعة: الغزال الأحور والعنبر والجوهر، والبازي الأقمر، وجعلها وسيلة استعاراته وتشبيهاته وقوله: (مدامة تعقِر إن لم تُعْقَر) كناية عن أصالة هذه الخمر وعتاقتها والمعنى: أنَّها تعقر أي: تقتل من أدمن شربها حين يرى صفاءها وأصالتها وهو محتاج إليها لكنَّه لا يتمكن من شربها وهي حالة يتصف بها مدمنوا المخدرات الذين احتاجوا إليها ولم يجدوها أو وجدوها ولم يتمكنوا من تعاطيها، تجدهم في حالة لا إنسانية، فهم أقرب إلى المجانين؛ إذ يفقدون السّيطرة على تصرفاتهم، وتظهر عليهم أعراض غريبة وعجيبة، من الرّعشة والمرض والغيبوبة، ومن ثم يُصعب علاجهم إلَّا من قويت عزيمته وسيطر على نفسه وتصبَّر على معاناة التعاطي، وألم المنع، أو تحت إشرافٍ طبيّ، ورعاية تامة؛ لسيطرة المخدر على عقولهم، وبين قوله: (تعقِر) بمعنى: تقتل و(تُعقَر) بمعنى: تُشرب[(١)]، جناس حسّن المعنى وجمَّله، وهو من الجناس المحرَّف لاختلاف الكلمتين في الحركة.

وهذا الجناس قريب من المستوفى الَّذي اتفقت فيه الكلمات في عدد الحروف وهيئاتها، وتكون اللفظة كأنّها إعادة للأولى "كانّه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنَّه لم يزدك وقد أحسن الزّيادة ووفَّاها".

---

(١) لسان العرب (عقر) (٣٠٣٨/٤).

وقد حذف جواب الشّرط، ودلَّ عليه ما قيل (إن)، والتقدير: إن لم تعقِر تُعقَر، وتقديم دليل الجواب دليل أهميته، وأنَّ هذه الخمر لأصالتها وعتاقتها لا يُستطاع مقاومتها لاسيما من عرفها ولازمها.

ثُمَّ أخذ في وصف السّاقي وجماله بجمل متوالية، وفائدة توالي هذه الجمل تنوع الوصف وزيادة الكشف والبيان للصورة وأول وصف للساقي في قوله: " تديرها كف غزال أحور" فشبه السّاقي بالغزال في الجمال والحسن على الاستعارة التصريحية وقوله: "أحور" والحور: أن يشتد بياض العين وسوادها وتستدير صدقتها ويرقد جفونها ويبيض ما حولها وليس في بني آدم حور وإنّما قيل للنساء: حور العين؛ لأنّهنّ شبهن بالظّباء والبقر.

وقال كراع: الحور أن يكون البياض محدق بالسّواد كله وإنما يكون هذا في البقر والظّباء ثم يستعار للناس وهذا إنَّما حكاه أبو عبيد في البرج غير أنَّه لم يقلك غنما يكون في الظّباء والبقر ..... والحوراء: البيضاء لا يقصد بذلك بياض عينها، والأعراب تسمّي نساء الأمصار حواريات لبياضهن وتباعدهن عن قشف الأعراب بنظافتهن.

وعلى القول: بأنّ الحور لا توصف به عيون بني آدم يكون ترشيحًا للاستعارة وقوله: "أحور" يقال أضاف نكتة بلاغية جديدة يتم المعنى بدونها وهي النّص على عيون هذا الغزال أو النّص على شدة بياض جسمه وفي مجيء هذه الجملة فعلية مصدرة بالفعل المضارع " تديره" دلالة على تجدد إدارتها واستمرارها واظهار لوظيفة السّاقي، فعمله مناولة الكأس للشاربين، وتهيئة المكان للمتعاطين فهو لا يبرح جيئة وذهابًا، ومدّ يده وقبضها، فكان الفعل المضارع كاشفًا ومصوّرًا لما عليه السّاقي من الحركة والجهد وما عليه من التعب والنّصب، وقوله: "ذي طرة عاطرة كالعنبر" حال من (كف غزال) يبيِّن هيئة طرَّته المزينة على رأسه ويشبهها بالعنبر وهو مثل المسك والكافور

في طيب الرّائحة.

ورواية الصّولي " في طرة قاطرة بالعنبر"

وهي أقوى وأبلغ حيثُ جعل هذه الطرة تقطِّر عنبرًا، وفرق بين عاطرة وقاطرة، فالعاطرة هي المضمَّنة بالعنبر، أمَّا القاطرة فهي الَّتي تقطر عنبرًا، وفرقة بين الطرّة المضمّنة بالعنبر والتي تقطر عنبرًا؛ إذ الأخيرة تدل على امتلائها وفيضان العنبر منها قطرًا وجريانًا، والجملة كناية عن جمال السّاقي.

والظّرفية مجازية؛ إذ يستحيل أن تتلبس الطرّة بالسّاقي تلبس الظّرف بالمظروف، والظّاهر أن يقول على رأسه طرَّة ولكنَّه بالغ في جماله؛ فجعل الطرّة بمنزلة المظروف له.

وكذا قوله: (ومبسم يكشفه عن جوهره) ومبسم يصح أن يكون اسم مكان فهو مكان التبسم من السّاقي، ويصح أن يكون اسم هيئة يصف هيئة الفم عند التبسم، وهو كناية عن جمال مبسمها، وقد شبّه أسنانها بالجوهر في ضيائها وتلألئها على سبيل الاستعارة التصريحية، والجامع هو الضّياء والتلألؤ في كلٍّ.

ورواية الصّولي (وملثمٌ يكشفه عن جوهر) والملثم: مكان اللثم... قال الفراء: إذا كان على الفم فهو اللثام، وإذا كان على الأنف فهو اللّفام[١] ..." وهو أقوى وأبلغ في وصف جمال السَّاقي إذ جعل له أيّامًا على مكان تبسمه، وهو يقوى أن يكون السّاقي فتاة؛ لأنَّ الغلام لا يضع لثامًا على فمه أو أنفه، و (عن) بمعنى على وسواء كانت الرّواية (ومبسم يكشفه عن جوهر) أو (وملثم يكشفه عن جوهر) فإنَّ اللثام أو المبسم وهو مكان التبسم قد غُطِّي بلثامها أو بشفتيها[٢].

---

(١) لسان العرب (لثم) (٥/٣٩٩٦).

(٢) راجع الجنى الدّاني في حروف المعاني، للمرادي، ت: فخر الدّين قباوة، والأستاذ: محمد نبيل فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنو ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

وقوله: "وكفل بسفل فضل المئزر" ورواية الصُّولي "وكفل يشغل فضل المئزر" وهو كناية عن امتلاء الرّدف، وهو مظهر جمال عند العرب، وقوله: "تخبر عيناه بعشقٍ مضمر"

في قوله: "تخبر عيناه" استعارة مكنية، حيثُ شبّه العينين بإنسان يتأتى منه الإخبار، والقرينة تخبر ويصح إجراؤها على التبعية في الفعل (تخبر) ويكون أولى بالسياق؛ لأنَّ الحديث عن جمال عيني الساقي فيكون شبه دلال العينين وجمالها بالإخبار.

والجمل كناية عن اكتمال مظاهر الجمال والحسن في هذا السّاقي، وكذا قوله: "يُعلِّم الفجورَ من لم يفجر" كناية عن جمال السّاقي واكتمال حسنه، وأنّه بلغ من حسنه وجماله وتدلله مع عدم عفته وحشمته، حتى أصبح مثالًا للفجور، ونموذجًا للفُحش، وهو وصف لا يلق بصاحبة الحسن والجمال، ولا يتواءم مع الحشمة والوقار، ويبدو أنَّ ابن المعتز أراد بهذا الوصف بلوغه في الجمال مبلغًا، وحتى وإن كان ذلك قصده، فليس الفجور ممدوحًا، فضلًا أن يكون نموذجًا فيه ومثالًا له، والمتأمّل في هذه الجمل الَّتي جاءت متوالية في وصف السّاقي:

١- تديرها كف الغزال أمور.

٢- ذي طرَّة عاطرةٍ كالعنبر.

٣- ومبسم يكسفه عن جوهر.

٤- وكفل بسفل فضل المئزر.

٥- تخبر عيناه بعشق مضمر.

٦- يعلم الفجور من لم يفجر.

٧- ويذعر الصّيد ببازأقمر.

يجد أنَّ هذه الأوصاف السبعة من ملائمات المستعار له وهو الساقي، ولا يقدح في ذلك لفظة (كفل) في قوله: (وَكَفَلٍ بِسَفلِ فَضلِ المِئزَرِ) فالكفل هو

العجز ... وقيل: يكون للإنسان والدَّابة.

وهذا الإغراق في التجريد قد أضعف الاستعارة، وقرَّبها من الحقيقة، وأنسانا الغزل، وأرانا الساقي وعليه صفات الجمال والحسن، لكنَّ هذا لا يقدح في الاستعارة، فمواطن الجمال في الإنسان أعلى وأشمل من مواطن الجمال في الغزال،. كما أنَّ التجريد له موطنه، وكذا الترشيح.

وميل ابن المعتز إلى التجريد هنا لعله اكتفى بتشبيهه بالغزال في جماله ثم أراد طرفة عن الغزال؛ لأنَّه أخذ منه صفة جمال، واتجه نحو وصف الساقي بصفات الإنسان الَّتي يحتاج إليها في مناولة الكأس والحديث مع الشُّرَّب، والنظر إلى جسده وحين مشيته وحديثه، فكان التجريد في موطنه أبلغ، وللكشف والإنانة أظهر.

كما يجد أنَّ أربعةً منها الأول والخامس والسّادس والسّابع جاءت جمل فعلية فعلها مضارع يدل على التجدد والاستمرار "تديرها – تخبر – يُعلم – يذعر)؛لأنّها تناسب الوصف وتلائمه وهي أنسب لوصف الحركة والحدث، إذ فيه تجدد وانقطاع ثم استمرار ودوام، كما جاءت ثلاث جمل اسمية وهي: الثانية والثالثة والرّابعة وذلك؛ لأنّها صفات ثابتة مستمرة للساقي أو قاربت الثبوت والاستمرار، فكانت الجملة الاسمية هي الأقدر على هذا الوصف الثابت للساقي.

وقوله: " ويذعر الصّيد بباز أقمر" من بقية صفات السّاقي، وقد أحسن التخلص من وصف السّاقي إلى وصف البازي، فبينما جعل هذه الجمل وصفًا للساقي ضمنها وصف البازي، وهذا التخلص غاية في المقدرة والتمكن، وقد لائم بين الطرفين وحرّك من نشاط السّامع وأعان على إصغائه إلى ما بعده(١).

وهذه الجملة معطوفة على سابقتها في وصف الفتاة، لكن وصف الفتاة

(١) الإيضاح مع البغية (ص٧٠٩).

بهذه الصّفة غير مناسب إذ ليس من صفات الفتاة أن تقوم بالصّيد وتجهد نفسها هذا الاجهاد، وتقوم بصحبة أهل الصّيد في الصّحاري والقفار، بل من صفاتها الدّلال والنّعومة والأنوثة؛ لذا فإنّ أرجح ما يكون قد عنى بهذه الصّفات كلّها غلامًا، وعادة ابن المعتز في ديوانه أن يذكر السّاقي وسيمًا، ويضفي عليه من صفات الجمال والدّلال ما يضيفه على المحبوبة، والغزل بالغلمان من صفات العصر العباسيّ الذي عاش فيه ابن المعتز فهو يقول مثلًا(١):

لَهُ مُقلَةٌ تَرمي القُلوبَ وَوَجنَةٌ ... تَفَتَّحَ فيها الوَردُ مِن كُلِّ جانِبِ
وَعُذِّرَ خَدّاهُ بِخَطَّينِ قُوِّمـــا ... كَما أَثَّرَ التَسطيرُ في رَقِّ كاتِبِ

ويقول(٢):

لا وَخَدٍّ مِن خُضرَةِ الشَعرِ جَدبِ ... لامِعٍ نورَهُ كَصَفحَةِ عَضبِ
وَاِبتِسامٍ مِن بَعدِ تَقطيبِ سُخطٍ ... وَرِضا لَحظِ مُقلَةٍ بَعدَ عَتبِ

وعلى جعل السّاقي غلامًا يتناسب عطف قوله: " ويذعر الصّيد بباز أقمر" على بقية الصّفات السّابقة، ولا يضير تعبيره بتاء الخطاب مرة "تخبر عيناه بعشقٍ مضمر" وبياء الغائب مرة " يعلم الفجور من لم يفجر "وبإلباسه صفات الأنثى، فالمحبوب يخاطب بالتذكير كما يخاطب بالتأنيث.

(١) ديوان ابن المعتز (ص٥٢).
(٢) ديوان ابن المعتز (ص٥٨).

رابعًا: وصف البازي "الصّقر"

رحلة الصّيد الَّتي هي قصد الشّاعر، ومن أجلها خرج قد أتى بها بعد الحديث عن أصالة جياده، وخروجه في السّحر ووجه الثَّرى قد غُطي بالرّياض المزدهية بالألوان المختلفة، والغُدْران الصّافية والهواء العليل والجو المعتدل الصّحو وبعد أن عاقر خمرة عتيقة من كف غزال احور، قد زاد حسنه وطفى جماله وقد ختم القصيدة بمقصده، وأنهى بها غرضه، ووصف البازي بقوله:

...   وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أَقمَرِ
كَأَنَّهُ في جَوشَنٍ مُزَرَّرِ   ذي مُقلَةٍ تَسرَحُ فَوقَ المَحجَرِ
كَأَنَّهُ رَقٌّ خَفِيُّ الأَسطُرِ   وَذَنَبٌ كَالمُنصُلِ المُذَكَّرِ

وقد زاد الصّولي بيتين بعد البيت الرّابع عشر فقال:

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخنِجرِ   تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ
وَهامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدَوَّرِ   وَجُؤْجُؤٍ مُنَمْنَمٍ مُحَبَّرِ

وبعد البيت الخامس عشر بيتين فقال:

أَوْ كَنَجِيّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ   وَقَبْضَةٍ تَقْصِلُ إنْ لَمْ تَكْسِرِ
قَلَّصَ فَوْقَ الدَّسْتَبانِ ألْأَحْمَرِ   جَناحَهُ كَرِدْيَةِ المُشَمَّرِ

وقد ذكر مظاهر الطّبيعة في هذه الأبيات: "البازي، المتصل، السّهم، المنسر ومنقارالطائر، العَضْب، السّيف، الخنجر، العصفر، الحجر المُدوّر، الطّلعة "الفرس" والدّستبان الأحمر" وقد استعان بهذه الأشياء على رسم مشاهده وتلوين صوره وكشف معناه، فكل تشبيهاته واستعاراته وكناياته من هذه الأشياء وقد وصف البازي باثنتى عشرة صفة، فبعد أن وصف البازي بجمال لونه وشدة بياضه" أقمر" شبهه في قوته وجلادته بـ"الجوشن الزّوّر" والجوشن هو الصّدر أو الدّرع[(١)] والمزرر والزّرّ بالفتح مصدر زررت القميص أَزُّره بالضّم زرًا إذا شددت

(١) لسان العرب (حوش) (٧٢٧/١).

أزراره عليك[١].

فقد شبهه بمقاتل له درع يحمي صدره، ووجه الشّبه: القوة والصّلابة في كلٍّ، فكما أنّ المقاتل له درع على صدره يتقي بها ضربات الأعداء فكذا هذا البازي له صدر قوي، لا يتأثر بالضّربات، ووصف الجوسن بأنّه مزور ؛ليؤكد قوته وجلادته، واستعمل أداة التشبيه "كأنّ" لدلالتها على قوة الشّبه بين الطرفين، وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد، وقد أضاف القيد قوة وزيادة في وجه الشّبه وهو إيقال ثمّ وصف مقلته بقوله "ذي مقلة تسرح فوق المحجر" والمقلة شحمة العين الَّتي تجمع البياض والسّواد، وقيل: هيسوادها وبياضها الَّذي يدور كلَّه في العين[٢].

والمحجر: محجر العين، ما داريها وبدا من البرقع من جميع العين[٣]، والجملة كناية عن حدة نظره وقوته مبنية على الاستعارة المكنية حيثُ شبّه المقلة بمن يتأتى منه السُّرُوح، وكأنّها تتحرك جيئةً وذهابًا، وهذه الجملة حال من البازي تبين صفة وهيئة حدة نظره، وهي صفة يحتاجها البازي؛ لينقضَّ على فريسته بقوة ومهارة في اقتناص صيده، كما أنَّه بحدة نظره يتجول بين هذه المناظر الخلَّابة الَّتي عددها ابن المعتز، وقوله:

كَأَنَّهُ رِقٌ خَفِيُّ ٱلأَسْطُرِ   وَذَنَبٍ كَٱلْمُنْصُلِ الْمُذَكَّرِ

الضّمير في قوله: كأنّه يرجع إلى قوله: "حوس" فهو يشبه صدر البازي بـ"ورق حقي الأسطر" في بياضه والرّق: الصّحيفة البيضاء ...والرّق ما يُكتب فيه، وهو جلد رقيق[٤]، وقوله: (وخفيُّ الأسطر) قيد في التشبيه، وهو كناية عن

---

(١) لسان العرب (زرر) (١٨٢٤/٣).

(٢) السابق (مقل) (٤٢٤/٦).

(٣) السابق (حجر) (٧٨٣/٢).

(٤) لسان العرب (رقق) (١٧٠٧/٣).

بياضه المستغرق، فالتشبيه روعي فيه اللون، فهو وصف للون صدر البازي وجماله، فابن المعتز لا يزايل يصف الصّقر بالقوة مرة وبالحسن والجمال أخرى.

وهو هنا يظهر بعضًا من مواطن الجمال، ثُمَّ يشبه ذنبه كالمنصل والمنصل... النّصل: السّهم العريض الطويل.... والسّهم: نفس النّصل [١] والمذكر، نسية... ويوم مذكر، وإذا وصف بالشّدة والصّعوبة وكثرة القتل... وطريق مذكر إلى الذكر في قوته وشدته... ناقة مذكرة: متشبهة بالجمل في الخلق والخُلُق... "ويوم مذكر إذا وصف بالشّدة والصّعوبة وكثرة القتل، وطريق مذكر: مخوف صعب".

وهذا التشبيه يفيد قوة البازي وجلادته، وقد أوغل فوصف المنصل بالمذكر ؛زيادةً في وصفه بالقوة، ثُمَّ حذف المُشبَّه به وأبقى صفة "المذكر" وهي صفة يوصف بها غير الإنسان على سبيل المجاز إذا أُريد وصف قوته أو صعوبته أو غلظته وخشونته[٢].

وقوله:

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخَنجِرِ   تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ

المنسر: منقار الطائر [٣]، ثمّ وصف قوة متضادة بـ "عصب الشّبا" والعصب: القطع... والعصْب هو السّيف القاطع، وسيف عصب: قاطع[٤].

والشّبا: شباة كلِّ شيء، حدّ طرفه وحدّ كلّ شيء شباته[٥].

(١) لسان العرب (نصل) (٦/٤٤٤٥).

(٢) أساس البلاغة، للزمخشريّ (ذكر) (ص٢٧٩).

(٣) لسان العرب (نسر) (٦/٤٤٠٧).

(٤) السابق (غضب) (٤/٢٩٨٢).

(٥) السابق (شبا) (٤/٢١٩١).

يصف منقار هذا البازي بأنَّه قوي قاطع، ثُمَّ يؤكد هذا المعنى بالتشبيه "كالخنجر" ووجه الشّبه: قوة القطعفي كلٍّ، ثُمّ يصف هذا المنقار بجمال لونه "تخاله مضمنًا بالعصفر"، والمضمّح: الضّمح لطخ الجسد بالطيب؛ حنتى كأنّما يقطر[١]، والعصفر: هذا الَّذي يصبغ به وكلاهما نبت بأرضِ العرب بصفات جماله، وقد عصفرت السّيء فتعصفر[٢] وهذا التشبيه روعي فيه اللون الأصفر، فابن المعتز يذكر صفات قوة البازي ويمزجها بصفات جماله وقوله: " مضمّخًا بالعصفر" تدل على جمال منقاره وحسن منظره وقوله:

وَهامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدَوَّرِ   وَجُوْجُؤٍ مُنَمْنَمٍ مُحَبَّرِ

الهامة: الرّأس[٣] والجؤجؤ: الصّدر[٤] ومنمنم ن النّمنمة خطوط متقاربة قصار...... كتاب منمنم مُنّقش، ونمنم الشّيء نمنمةً أي: رقشه وزخرفه[٥]، والمحبر: المحسن والمزيّن[٦]، يصف رأس البازي بصلابتها وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد ووجه الشّبه الاستدارة والصّلابة في كلٍّ ن وقد أفاد لفظ" المدوّر" الاستدارة؛ لأنّ الحجر ليس بلازم أن يكون مدوّرًا، فأوحى بصفة الاستدارة مع الصّلابة فلو شبّه رأسه بالحجر ما حسُن التشبيه ؛لأنّ الحجر قد يكون صفة ذم كأن يُراد أن يوصف المُشبَّه بالقسوة والجمود، وان يوصف بالغباء وعدم الفهم فيقولون: رأسه كالحجر فجاءت لفظة "المدوّر" ؛ لترسم هيئة الرأس في استدارتها.

(١) لسان العرب (ضمخ) (٤/٢٦٠٥).
(٢) لسان العرب (عصفر) (٤/٢٩٧٣).
(٣) السابق (هوم) (٦/٤٧٢٣).
(٤) السابق (جأجأ) (١/٥٢٨).
(٥) السابق (تمم) (٦/٤٥٥١).
(٦) السابق (حبر) (٢/٧٤٨).

"وحؤحؤ منمّنم محبّر " فراعى فيه الحسن والجمال وفي قوله: " منمنّم محبّر"، يُقال: وكان يكفي ان يقول "منمّنم" لكنّه أكّدّ ذلك بقوله: "مُحبّر" زيادة في حسنه وجماله.

ثمّ يتابع وصف البازي فيقول:

أَوْ كَنَجِيّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ   وَقَبْضَةٍ تَقْصِلُ إنْ لَمْ تَكْسِرِ

والنجيُّ: السريع[1] المقشَّر... وفلان يتفكه بالمشر: أي: بالفستق، المقشور... ومن المجاز: خرج في قشرتين نظيفتين، أي: في ثوبين، وعليه قشر حسن وحل ذو رواء وقشر..."[2].

يصف البازي بالقوة والسّرعة فيشبهه بالفرس السّريع حسن المنظر، وقد حذف الموصوف "الفرس" وذكر صفته وكأنّ هذه عادته كما في قوله: " قد اغتدى على الجياد الضّمر" ثُمَّ يذكر قوة قبضته "وقبضة تقصل إن لم تكسر"، والقصل القطع وقيل القصل قطع الشّيء من وسطه أو أسفل من ذلك[3].

أي: وله قبضة تفصل الرّأس عن الجسد إن لم تكسرها، والشّطر الأول كناية عن سرعة البازي وحسن منظره، وهي مبنية على التشبيه متولدة منه، والشّطر الثاني كناية عن شدته والعطف للتوسط بين الكمالين، والجامع أنّ المتحدث عنه واحد وهو البازي لكن قوله: "وقبضة تفصل إن لم تكسر" كان الأولى أن يقول: "تكسر إن لم تفصل"، فيكون تدرجًا من الأضعف، وهو الكسر إلى الأقوى وهو الفصل، و يكون المعنى: أنّه لقوته وشدته، فإنّ عادته الفصل وأقلُّ شيء أن يكسر أعضاء الصّيد، لكن قوله: " تفصل إن لم تكسر"، فإنّ المعنى: أنَّ الكسر وهو الأضعف ولعلَّ الصّيد له مصطلحات وضوابط لم

---

(١) لسان العرب (نجا) (٤٣٥٩/٦).

(٢) أساس البلاغة (قشر) (ص٦٨٣).

(٣) لسان العرب (قصل) (٥٦٥٥/٥).

تدركها، أو لعلَّ الوزن اضطرَّه لذلك، وفي آخر بيت يقول:

قَلَّصَ فَوْقَ الدَّسْتَبانِ ٱلأَحْمَرِ   جَناحَهُ كَرِدْيَةِ المُشَمَّرِ

قلص: ارتفع[١] الدّستبان الأحمر: كيس من الجلد يجعله الرّجل على يده تحت رجلي الصّقر[٢] رِدْية: ... وإنّه لحسن الرّدْية، أي: الارتداء[٣].

الشّمر:... تشمّر للأمر تهيَّأ... والتشمير هو الجدُّ في الأمر والاجتهاد[٤].

يصف الصّقر وقد وقف على يد صاحبه وتحته هذا الجلد "الدّستبان الأحمر"؛ ليقي صاحبه، وقد تهيّأ واستعد للانطلاق والانقضاض على فريسته، ثمَّ يصف جناحه وقد مدها كرداء " المتحفِّر المشمِّر لعمل شيء"، والشّطر الأول حال يبين حالة البازي وهيئته واستعداده للانطلاق، وكذا جملة التشبيه "جناحه كردية المشمّر" حال تؤكد سابقتها، وتقوي معناها، لذا جاءت مفصولة لكمال الاتصال بينهما، فقد جاءت الجملتان تتآذران وتتناحران في إبراز هيئة الصّقر وحالته في الاستعداد والتهيّؤ عند الانطلاق والانطلاق والانقضاض على فريسته.

والمتأمِّل في وصف ابن المعتز لبازيه، يجده قد استوعب صفاته، واستطرد فيها ومزج بين صفات قوته وصلابته وصفات حسنه وجماله، ولأنّ البازي مُعدّ للصيد، يحتاج إلى صفات القوة أكثر من احتياجه إلى صفات الجمال والحسد فقد زاد في صفات قوته، وكاد لم يترك عضوًا من أعضاء البازي إلَّا وصفه وشبهه، وقد ذكر للبازي اثنتي عشرة صفة منها تسع صفات لقوته وشدته، هي:

---

(١) لسان العرب (قلص) (٣٧٢١/٥).

(٢) الامتاع والمؤانسة لأبي حيان

(٣) لسان العرب (ردى) (١٦٣٠/٣).

(٤) السابق (شمر) (٢٣٢٢/٤).

١.كَأَنَّهُ في جَوشَنٍ مُزَرَّرِ

٢.ذي مُقلَةٍ تَسرَحُ فَوقَ المَحجَرِ

٣.وَذَنَبٌ كَالمُنصُلِ المُذَكَّرِ

٤.وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخْنِجرِ

٥.وَهامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدَوَّرِ

٦.أَوْ كَنَجِيّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ

٧.وَقَبْضَةٍ تَقْصِلُ إنْ لَمْ تَكْسِرِ

٨.قَلَّصَ فَوْقَ الدَّسْتَبانِ ٱلأَحْمَرِ

٩.جَناحَهُ كَرِدْيَةِ المُشَمَّرِ

ويلاحظ أنَّ الصّفة الرّابعة والخامسة والسّادسة والثامنة، قد مزج صفة القوة فيها بصفة الحسن فقوله في الصّفة الرّابعة:

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخْنِجرِ   تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ

وصف منقار البازي بقوة قطعه وشبّهه بالخنجر ثمّ شبهه بأنّه مضمّخ بالعصفر وفي الصّفة الخامسة "وهامة كالحجر المدوّر" وهي الَّتي حسّنت التشبيه، فالاستدارة في الرّأس مظهر حسن وجمال، وفي الصّفة السّادسة "أو كنجيّ الطلعة المقشَّر" وصفه بالسّرعة وقيد المُشبَّه به بلفظ المقشَّر، وهو لفظ حسن وجمال وبهاء ورواء، وفي الصّفة الثامنة "وقلص فوق الدّستبيان الأحمر" وصفه بالتهيّؤ للانطلاق والانقضاض على فريسته وتحته الدّستبان الأحمر، أمّا صفات الجمال فقوله:

– وَيَذْعَرُ الصَّيْدَ ببِازٍ أَقْمَرِ

– كَأَنَّهُ فِي جَوْشَنٍ مُزَرَّرِ

– وَجُوْجُؤٍ مُنَمْنَمٍ مُحَبَّرِ

ووصف البازي بصفات القوة والشّدة والحسن والجمال وهي عادة عربية أصيلة سجلها الشّعراء في شعرهم، فهم يصفون خيولهم الَّتي يرتحلون عليها

ويصفون جمالهم الَّتي تحملهم حتى الآن ويصفون أدوات الصّيد ومازالت هذه العادة قائمة في البلاد العربية حتى الآن، إذ تجد المسابقات تقام لأسرع جمل أوناقة، ويطلقون عليها أسماء تدل على عنايتهم بها واهتمامهم بأمرها، فلا غرو أن يدمج ابن المعتز بازيه بهذه الصّفات؛ تماشيًا مع العادات وإفراغًا لموهبة فنية تلبثت به، واختبارً عن رحلة صيد رافقه فيها هذا البازي الَّذي علا في حسنه وجماله، وشدته وسرعته.

خامسًا: خصائص الألفاظ والأساليب والمعاني في القصيدة:

أما عن الألفاظ والأساليب والمعاني، فقد جاءت الألفاظ سهلة يسيرة كثيرة الدّوران، على عكس ما كان الوصف في العصر الجاهلي، إذ كانت ألفاظه جزلة قوية تحتاج إلى بحث في كتب اللغة والمعاجم، فترى قوله: " اغتدى، الجياد المضمر، الصّبح، ليل مسفر، مهر أشفر، الوحش، الأوطان، حلا وجه الثَّرى، منظر، العصب، الوشي، الجوهر، البيض، أحمر، أصفر الطارف، الأجفان، العين، لم يقعر، فاتق، لم ينور، مبتسم لم يكشر، الغُدْران، لم تكدر، الرّوجن، المطر، الدّراهم، المصحف، الشّمس، جو، مدامة تعفر، الغزال، الأحور، الفجور، الصّيد، بازي، أقمر..." إلى غير ذلك من الألفاظ الَّتي لا تحوج في معناها.

وأنَّ بعضها آخذ بحجر بعض، سلَّمك اللفظ الأول إلى الثاني، والثاني إلى الثالث، وهكذا، تآخت الألفاظ، وترابطت المعاني، فظهر عنده ما يُسمى بمراعاة النظير وائتلاف اللفظ في معناه من أوَّل القصيدة إلى نهايتها.

إلى كدِّ الذهن والبحث عن معانيها في معاجم اللغة، وترتب على ذلك، وضوح الأساليب، وظهور معناها غير أنَّ بعض ألفاظ القصيدة كان فيها شيء من خفاء المعنى، ليس لقرابته، وإنّما لعدم كثرة استعمالها كقوله: جوسن بمعنى الدّروع، ومنسر بمعنى منقار الطائر، وهامة بمعنى الرّأس، وجؤجؤ بمعنى الصّدر، وقلص بمعنى ارتفع ولكن بقليل من البحث تقف على معناها، وتدرك مرادها، وعليه فقد جاءت الأساليب واضحة كاشفة عن معناها في براعة وبداعة من غير تقصير أو عجز أو إبهام أوغموض ولك أن تتأمّل أساليبه الَّتي كشف بها عن مشاهد رحلته كقوله:

وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ
وَالوَحشُ في أَوطانِها لَم تُعذَرِ

فتراها واضحة جلية قوية ندية، اقترب معناها وكثر دماؤها وشعّ روّاؤها، فأثمرت فهمً وطربًا ومتعة.

وقد تجلّى في أسلوب القصيدة بعض المظاهر والظّواهر تتمثل في:

أولًا: الأسلوب الخبري في القصيدة وعلّة اختياره.

ثانيًا: الجملة الحالية وأثرها في الأسلوب.

ثالثًا: مظاهر الطبيعة وامتزاجها مع الألوان البلاغية وأثرهما في الأسلوب.

رابعًا: أثر اللون في أسلوب القصيدة.

وإليك بيان ذلك:

أولًا: الأسلوب الخبري في القصيدة وعلّة اختياره.

القصيدة جاءت بالأسلوب الخبري وخلت من الأسلوب الإنشائي؛ لأنّها في الوصف، والوصف يكشف الحقائق، وإظهار مناظر ماثلة في الطبيعة، فيناسبها الأسلوب الخبري، الَّذي يبيّن واقعًا، ويكشف عن هذه المشاهد الطبيعية الخلّابة ويعدِّد صوّرها، ويعرض لأجزائها وتفاصيلها، ولذا جاءت هذه الأخبار يُقصد بها فائدة الخبر، ولم تخرج إلى أغراض بلاغية أخرى؛ لأنّ بلاغة الخبر في هذا السِّياق هو إخبار عن مناظر ومشاهد مرّ عليها الشّاعر أو طُبِعت في ذهنه، فلا يحتاج إلّا إلى الإخبار عنها ورسمها في ذهن المتلقي في ذهن المتلقي، كما رسمت في ذهنه، ليعين حالة الشّاعر الَّتي عاشها ومتعته الَّتي تمتّع بها، ولك أن تتأمّل أخبار القصيدة ؛لتكتشف حقيقة رحلته وما فيها من جمال هذا الوقت، وهدوء نسيمه وصفاء جوّه، والوحوش الهادئة في أوطانها، لم يعكرها جلبة أو ضوضاء ولم ينفرها حركة وصياح، وقد غطّت الزّهور والورود وجه الثَّرى بالألوان الزّاهية غير ذلك من بقية الأوصاف، لذلك لم نر في القصيدة أسلوبًا إنشائيًا واحدًا؛ لأنّ المقام لا يتطلبه، والسّياق لا يستدعيه.

ثانيًا الجملة الحالية وأثرها في الأسلوب.

لما كانت الجملة الحالية تصف وتبين حال وهيئة صاحبها، وابن المعتز يُعدِّد شاهده، وينوِّع صوره في وصف السّحر والوحوش والرّ ِياض فقد ناسب استعمال جملة الحال بكثرة، وقد تسلسلت أفكار ابن المعتز وترقرقت معانيه وكشف عن قمة غبداعه حين جعل الجملة الحالية هي الرّيشة المصممة واليد النّاعمة الَّتي تمر بها على اللوحة الفنِيَّة، فتحيلها جنة خضراء عصافيرها مغردة وورودها زاهرة، وثراها مغطى بكلّ ما هو جميل معجب وعجيب ماتع حيثُ جعل لنفسه كثيرًا من الأحوال في هذا الوقت:

قَد أَغتَدي عَلى الجِيادِ الضُمَّرِ وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ

ولك أن تتصور موقع الجملة الحالية هكذا:

قَد أَغتَدي عَلى الجِيادِ الضُمَّرِ وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ
كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهرٍ أَشقَرِ وَالوَحشُ في أَوطانِها لَم تُعذَرِ
... وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ
... وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوِّرِ
... وَأَدمَعُ الغُدرانِ لَم تُكَدَّرِ
وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ ...
... وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ

مجملة (والصبح في طرة ليل مسفر) حال من الضمير في (قد أغتدي) العائد على الشاعر، وجملة التشبيه (كأنه غرة مهر أشقر) حال من الصبح، وبقية الجمل حال من الضمير العائد على الشاعر.

وقوله:

... وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ
كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

جملة التشبيه (كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ) و(تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ) حال من الشمس يبينان هيئة وهجها وأشعتها وجمالها.

وقوله:

مُدامَةً تَعقِرُ إِن لَم تُعقَرِ تُديرُها كَفُّ غَزالٍ أَحوَرِ

جملة (تُديرُها كَفُّ غَزالٍ أَحوَرِ) حال من (مدامة) وقد تعرَّفت بالتنوين والوصف بيَّن هيئة المدامة وجمال الساقي.

وقوله:

... تُديرُها كَفُّ غَزالٍ أَحوَرِ

ذي طُرَّةٍ عاطِرَةٍ كَالعَنبَرِ وَمَبسِمٍ يَكشِفُهُ عَن جَوهَرِ

وَكَفَلٍ بِسَفلِ فَضلِ المِئزَرِ تُخبِرُ عيناهُ بِعِشقٍ مُضمَرِ

يُعَلِّمُ الفُجورَ مَن لَم يَفجُرِ وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أَقمَرِ

ستة أحوال متتالية للغزال الأحور.

وقوله:

... ذِي مُقْلَةٍ تَسْرَحُ فَوْقَ المَحْجِرِ

كَأَنَّهُ رِقٌّ خَفِيُّ ٱلأَسْطُرِ وَذَنَبٍ كَٱلمُنْصُلِ ٱلْمُذَكَّرِ

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَٱلْخَنجرِ تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ

وَهامَةٍ كَٱلْحَجَرِ ٱلْمُدَوَّرِ وَجُؤْجُؤٍ مُنَمْنَمٍ مُحَبَّرِ

أَوْ كَنَجِيِّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ وَقَبْضَةٍ تَقْصِلُ إنْ لَمْ تَكْسِرِ

قَلَّصَ فَوْقَ الدَّسْتَبانِ ٱلأَحْمَرِ جَناحَهُ كَرِدْيَةِ المُشَمَّرِ

ترى فيه توالي الأحوال الَّتي تصف وتبين هيئة البازي مرة وتسير إلى قوته وجلادته، ومرة تشير إلى حسنه وجماله، وهكذا ترى الترقرق والانسياب في بيان حال البازي عند ابن المعتز، وقد لوحظ في أساليب ابن المعتز أنّ الجملة الخبرية تحمل معنى الحال والكناية والتشبيه في آن واحد وهذا دليل على مقدرة

الشّاعر وحسن توظيف لغته لمعاني وأفكاره.

كما ترى تتابع الإضافات عند الشاعر كما في قوله: (... في طرة ليل مسفر) و(... غرة مهر أشقر) و(أو كتفسير مصحف مفسر) و(والشمس في إصحاء جو أخضر) و(تديرها كف غزال أحور) و(ذي طرَّة عاطرة كالعنبر) و(وكفل بسفل فضل المئزر) و(وكنجي الطلق المفسر) ولكنَّها إضافات حسنة سلمت من الاستكراه، ولم تثقل على اللسان، وقد كثُرت في كتاب الله تعالى، وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) وأدب الفحول من الكتَّاب والشعراء واستجادها النُّقاد وجعلوها محمودة، وأضافوها إلى مقدرته على السيطرة والتصرف في لغته[1].

(١) راجع: شروح التلخيص (١/١١٤).

ثالثًا: مظاهر الطبيعة وامتزاجها مع الألوان البلاغية وأثرهما في الأسلوب.

سبق القول أنّ المادة الَّتي نحت منها الشّاعر صوره ومشاهده هي مظاهر الطبيعة المتحركة والسّاكنة، وقد مزج هذه المظاهر بالتشبيه والصّور المجازية والكناية وقد ورد التشبيه في قصيدته ما يزيد علن عشرين مرة بواقع أكثر من تشبيه في البيت الواحد، وبين الوصف والتشبيه نسب وعلاقة.

يقول ابن رشيق: "الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه، وهو مناسب للتشبيه، مشتمل عليه، وليس به؛ لأنه كثيرًا ما يأتي في أضعافه، والفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشيء، وأن ذلك مجاز وتمثيل"(١).

ونص ابن رشيق هذا جيد ومفيد فالواصف يُعدد صفات الموصوف وهي كثيرة فيحتاج أن يبالغ في شجاعته، فيشبهه بالأسد، ويحتاج أن يبالغ في جماله فيشبهه بالغزال، وهكذا.

ولكني لا أدري لماذا الوصف يحتاج إلى التشبيه، ولم يذكر الاستعارة والكناية؟ وقارئ شعر الوف يرى الألوان البلاغية تتزاحم، ويرى عناصر الأساليب تتراكم وتتراكب، تكشف المعاني وتجسدها؛ فتجعل الساكن مُتحركًا، والجماد ناطقًا، وهكذا، ولعله أراد بالتشبيه مطلق المجاز؛ ولذا جعل التشبيه مجازًا.

وقد جاء بتشبيه المفرد بالمفرد وتشبيه المركب بالمركب، وتشبيه المفرد بالمركب والمركب بالمفرد، وقد ورد تشبيه المفرد بالمفرد في القصيدة ما يقرب عن سبع عشرة مرة هي:

جَلا لَنا وَجهَ الثَّرى عَن مَنظَرِ   كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ

فقد شبّه وجه الثَّرى بالعصب وبالوشي والجوهر.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه (٢/ ٢٩٤).

فأفرد المشبه (وجه الثرى) وعدد المشبه به (كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ) وتعديد المشبه به يُسمى (تشبيه الجمع).

... وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ

تَخالُهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ ...

حيث شبه الطارف الذي لم ينظر أجفانه بإنسان أغلق فمه وهو مفرد مُقيد بمفرد مُقيد.

... وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوِّرِ

كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ ...

حيث شبه الفاتق الذي كاد ولم ينور بمبتسم لم يكشر، وهو مفرد مُقيد بمفرد مُقيد.

... تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

تشبيه مفرد الضمير في (تُسقى) العائد إلى الشمس والمشبه مقيد (عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ) وهو تشبيه داخل تشبيه، حيثُ شبه المشبه به (عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ) وهو تشبيه مفرد مُقيد بمفرد مُقيد.

ذي طُرَّةٍ عاطِرَةٍ كَالعَنبَرِ وَمَبسِمٍ يَكشِفُهُ عَن جَوهَرِ

شبه الطرة العاطرة بالعنبر، وهو تشبيه مفرد مقيد بمفرد.

... وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أَقمَرِ

كَأَنَّهُ في جَوشَنٍ مُزَرَّرِ ...

كَأَنَّهُ رَقٌّ خَفِيُّ الأَسطُرِ وَذَنَبٌ كَالمُنصُلِ المُذَكَّرِ

فقد شبه البازي لقوته وحلاوته بأنَّه مُحاط بدرع صلب؛ لا تصل إليه السهام، وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد، كما شبه(برق خفي الأسطر)، وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد، ثم شبه ذنبه بأنَّه كالمنصل المذكر، وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد.

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخْنِجرِ   تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ
وَهامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدَوَّرِ   وَجُؤْجُؤٍ مُنَمْنَمٍ مُحَبَّرِ

فقد شبه منقاره بالخنجر في قوة القطع، وهو تشبيه مفرد مقيد بمفرد، كما شبهه في جماله بالعصفر، وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد، ثم شبه هامته بالحجر المدوَّر، وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد.

أَوْ كَنَجِيّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ   وَقَبْضَةٍ تَفْصِلُ إنْ لَمْ تَكْسِرِ

شبهه بالفرس السريع جميل المنظر، حسن الهيئة، وهوتشبيه مفرد بمفرد مقيد، ثم شبه جناحه بردية المشمر، وهو تشبيه مفرد بمفرد مقيد.

وفي تشبيه المفرد بالمفرد رواح بين الإطلاق والتقييد فجاء التشبيه المفرد المطلق في ثلاثة مواطن في قوله:

جَلا لَنا وَجهَ الثَرى عَن مَنظَرِ   كَالعَصبِ أَو كَالوَشيِ أَو كَالجَوهَرِ

كما جاء تشبيه المفرد بالمفرد المقيد في ثمانية مواطن في قوله:

- تسقَى عُقارًا كالسّراجِ ٱلأَزْهَرِ
- كَأَنَّهُ فِي جَوْشَنٍ مُزَرَّرِ
- كَأَنَّهُ رِقٌ خَفِيُّ ٱلأَسْطُرِ
- وَذَنَبٍ كَالْمُنْصُلِ الْمُذَكَّرِ
- تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ
- وَهامَةٍ كَالْحَجَرِ الْمُدَوَّرِ
- أَوْ كَنَجِيّ الطَّلْعَةِ المُقَّشرِ
- جَناحَهُ كَرِدْيَةِ المُشَمَّرِ

وجاء التشبيه المفرد المقيد في سبعة مواطن في قوله

...   وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ
كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهرٍ أَشقَرِ   ...

والمشبه الضمير في (كأنَّه) الراجع إلى الصبح مقيد بأنَّه في طرة ليل مسفر، فهة مفرد مقيد بمفرد مقيد (مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ).

... وَطارِفٍ أَجفانَهُ لَم يَنظُرِ

تَخالُهُ العَينُ فَمًا لَم يُفغَرِ ...

فالمشبه (الطارف) مقيد بأنَّه لم ينظر أجفانه، والمشبه به (الفم) المقيد بأنَّه لم (يُفغَرِ).

... وَفاتِقٍ كادَ وَلَم يُنَوَّرِ

كَأَنَّهُ مُبتَسِمٌ لَم يَكشِرِ ...

فقد شبه الفاتق المقيد بأنَّه لم ينوِّر بالمبتسم المقيد بأنَّه لم يكشر.

وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ

أَو كَتَفسيرِ مُصحَفٍ مُفَسَّرِ ...

فقد شبه الرَّوض بأنَّه مغسول بليل مُمْطر، ويصح أن يجعل هذا من قبيل التركيب فهو يصف هيئة الرَّوض وقد غُسل بالمطر النّازل من السّماء، والتركيب أقرب وأولى من التقييد بالدّراهم المقيدة بأنَّها في منشر، ويصح أن يجعل هذا من قبيل التركيب أيضًا لا التقييد، فيكون المُشبَّه به هيئة الدّراهم بأنَّها في منشر، لكن التقييد في المُشبَّه به أولى من التركيب.

وقوله (أو لتفسير مصحف مفسر) هذا تعديل للمُشبَّه به، فقد شبهه بأمرين: الأول: بقوله (كأنَّه دراهم في منشر) والثاني بقوله: (أو لتفسير مصحف مفسر) وجاء القيد بإضافة مصحف إلى مفسر، والإضافة لتخصيص المضاف؛ لأنَّ المضاف إليه نكرة[١].

---

(١) حاشية الصّبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢/٢٣٩)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، من دون.

وقد قيَّد تفسير المصحف بأنَّه مفسَّر، ودلالة على شك وضوحه وقوة ظهوره.

... وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أَقمَرِ

كَأَنَّهُ في جَوشَنٍ مُزَرَّرِ ...

فالمُشبَّه الضّمير في (كأنَّه) العائد على قوله: (ببان أقمر) والظّاهر أنَّ المُشبَّه مفرد ولكنَّه عائد على البلزئ الموصوف بأنَّه (أقمر)؛ لذا كان مقيدًا وليس مفردًا.

... ذي مُقلَةٍ تَسرَحُ فَوقَ المَحجَرِ

كَأَنَّهُ رَقٌّ خَفِيُّ الأَسطُرِ ...

والمُشبَّه الضّمير في (كأنَّه) العائد على المقلة الَّتي تسرح فوق المحجر، والمُشبَّه به الرّق المقيد بأنَّه خفي الأسطر.

وَمنْسرٍ عَضْبِ الشَّبَا كَالْخَنِجرِ تَخالُهُ مُضَمَّخًا بِالْعُصْفُرِ

فالمُشبَّه الضّمير في (تخاله) العائد على (منسر عقب الشّبا)؛ لذا كان من قبيل المفرد المقيد، والمُشبَّه به، (مضمحا بالعصفر) من قبيل المفرد المقيد أيضًا.

ويُلاحظ أنَّ التشبيه المفرد والمفرد المقيد كانا يرسمان مشاهد مستقلة، لكنَّ هذا المشهد كان ضمن مشاهد عدَّة، وصور مختلفة ساعد على كشفها وإبرازها، وهذه الصّور والمشاهد قد تضامت وتآذرت على إخراج لوحة فنية لرحلة خلوية تكامل حسنها، وأُبدع في تلوين مشاهدها.

أمَّا التشبيه المُركب فمع أنَّه لم يكثُر في القصيدة إلّا أنَّه لم يخل منها كقوله:

... وَالصُبحُ في طُرَّةِ لَيلٍ مُسفِرِ

كَأَنَّهُ غُرَّةُ مُهرٍ أَشقَرِ ...

فقد سبق القول أنَّ المُشبَّه هو الضّمير في (كأنَّه) العائد على الصّبح وصورته صورة المفرد، لكنَّ الضّمير لا يعود إلى الصّبح مجردًا عن تركيبه، فتنقطع الصّورة ويُبتر المشهد، ولكنَّه عائد إلى البح وهو في طرة ليل مُسفر، فيكون المُشبَّه مركب، والمُشبَّه به (غرة مهر أشقر) مفرد مقيد.

وَالرَوضُ مَغسولٌ بِلَيلٍ مُمطِرِ كَأَنَّهُ دَراهِمٌ في مَنشَرِ

المُشبَّه الضّمير في (كأنَّه) الرّاجع إلى الرّوض، فصورته صورة المفرد، والتحقيق أنَّ الضّمير راجع إلى الرَّوض على هيئته المذكورة، وهي أنَّه مغسول بليل مُمْطر فهو من قبيل التركيب وليس الإفراد، والمُشبَّه به مفرد مقيد (دراهم في منشر) والنّظرة الكلية إلى المُشبَّه به تُعطيك هيئة دراهم نُثرت في منشر؛ لكنَّها إلى التقييد أقرب؛ لقلة التفصيل في المُشبَّه به؛ ولأنَّ قوله (في منشر) قيد وصف للمُشبَّه به، وليس جزءًا منه.

... وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ

كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ ...

المشبه: هيئة الشّمس في إصحاء جو أخضر، فهو مركب والمُشبَّه به: هيئة الدّمعة الجارية في محجر، وهو مركب أيضًا، وجه الشّبه: الحركة والاضطراب والاستدارة في كلٍّ.

أمَّا عن استعارات ابن المعتز في القصيدة فقد تنوعت بين المكنية والأصلية، واستعارة الحرف، وقد كثُرت عنده الاستعارة المكنية؛ إذ وردت فيما يزيد على أحد عشر موطنًا في قوله:

١- والصّبح في طرة ليل مسفر.

فقد شبه الصّبح بطرة ثوب كما شبه الليل بثوب طرته الصّبح.

وكذا في رواية الصّوليّ (والنّجم في طرة صبح مسفر) فقد شبه النّجم بطرة ثوب كما شبه الصّبح بثوب طرته النّجم.

٢- حلا لنا وجه الثَّرى عن منظر.

فقد شبه الصّبح بإنسان له وجه، ثم حذف المُشبَّه به وأبقى أهم عضو فيه وهو الوجه.

٣- ... وطارق أحقانه لم ينظر.

فقد شبه الورد بإنسان يطرف بأجفانه، ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفة طارف دليلًا عليه.

٤- وأدمع الغُدْران لم تكدر.

حيث شبه الغُدْران بالعيون الدّامعة، ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفة (أدمع) دليلًا عليه، وفي تعبيره بأدمع العذران في موطن عرض صور مُبهجة، ومشاهد الحُسن والجمال ما يؤخذ عليه، ولو أنَّه قال (أعين العذران) لأبعد نفسه عن موطن العيب والتقصير.

٥- والرَّوض مغسول بليل مُمْطر

حيث شبه الليل بماء نُفس به، ثم حذف المُشبَّه وأبقى صفة مغسول، وفيه دلالة على كثرة المطر النّازل بالليل حتى أصبح الليل مطرًا ينزل في كلّ بُقعة وكلّ اتجاه.

٦- كَدَمعَةٍ جارِيَةٍ في مَحجِرِ   تُسقى عُقارًا كَالسِراجِ الأَزهَرِ

الضّمير في (لا تسقي) راجع إلى الشّمس في قوله (والشّمس في إصحاء جو أخضر) وقد شبه الشّمس هنا بإنسان يتأتى منه شرب الخمر، ثم حذف المُشبَّه به وأبقى صفة (تسقي) دليلًا عليه، على سبيل الاستعارة المكنية؛ للدلالة على قوة إضاءة الشّمس وشدَّة تلألئ أشعتها، وأكد هذا المعنى بقوله: (عقار كالسّراج الأزهر) وفي استعارة (عقارة كالسّراج الأزهر) لأشعة الشّمس فيه دلالة على تكلف ابن المعتز وإغراقه بالخمر وعتاقتها، وأنَّ لها عنده منزلة، وفي قلبه لها محبة، حتى استعارها لأشعة الشّمس، وهذا واضح في ديوانه؛ إذ ديوانه

خمر وغزل إلَّا قليلًا.

..... تُخبِرُ عَيناهُ بِعِشقٍ مُضمَرِ

فقد شبه العين بإنسان يتأتى منه الإخبار، ثم حذفه وأبقى صفة (تخبر) دليلًا عليه، والقرينة (تخبر) ويصح جعلها تبعية في (تخبر) بأنَّ يُشبه الدّلالة على الجمال بالإخبار والقرينة استحالة حدوث الإخبار من العين حقيقة، وجعلها على التبعية أولى في هذا السّياق؛ لأنَّ الحديث عن جمال العين وحسنها، وشدة ملاحتها؛ فجعلها تبعية أولى من جعلها مكنية.

... ذي مُقلَةٍ تَسرَحُ فَوقَ المَحجَرِ

حيث شبه المقلة بمن يتأتى منه السّرح هيئة وذهابًا.

كما جاءت الاستعارة التبعية في قوله: (وفاتق كاد ولم ينور) حيثُ استعار (فاتق)؛ لقرب انشقاق الزّهرة وبدوِّها، وفيه إيحاء بطيب الرّائحة؛ فلا يوجد في لفظة الشّق أو أقرب بدو الزّهرة.

وفي قوله (... والصّبح في طرة ليل مسفر)

استعارة تبعية في الحرف (في) حيثُ شبه بلبس الصّبح في الليل، ومداخلته لا بتلبس الظّرف بالمظروف الحقيقيّ.

وقوله

... وَالشَمسُ في إِصحاءِ جَوٍّ أَخضَرِ

فقد شبه الشّمس في الجو بتلبيس الظّرف بالمظروف الحقيقيّ، كما جاءت عنده الاستعارة الأصلية مرة واحدة في قوله:

... تُديرُها كَفُّ غَزالٍ أَحوَرِ

إذ شبه السّاقي بالغزال؛ رغبة منه في إضفاء صفة الحسن والجمال عليه، ثمَّ جرَّد هذا الاستعارة بكثير من صفات الإنسان في قوله:

ذي طُرَّةٍ عاطِرَةٍ كَالعَنبَرِ وَمَبسِمٍ يَكشِفُهُ عَن جَوهَرِ

وَكَفَلٍ بِسَفلِ فَضلِ المِئزَرِ تُخبِرُ عَيناهُ بِعِشقٍ مُضمَرِ
يُعَلِّمُ الفُجورَ مَن لَم يَفجُرِ وَيَذعَرُ الصَيدَ بِبازٍ أَقمَرِ

كما شاعت الكناية في القصيدة؛ ليبالغ في معناه، يدلل على قصده، وليسوق كلامه بحجة وبرهان.

كما أحسن توظيف حروف الرّبط، وقد أكثر من الواو الحالية الَّتي ناسبت غرضه (الوصف) فهو يذكر صورًا ومشاهد حسنة المنظر جميلة المرأى، شذية زاكية طيبي، وقد وردت واو الحالية عنده فيما يقرب من أربعة عشر مرَّة.

الخاتمة

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد..

فبعد هذه الرّحلة مع قصيدة ابن المعتز (كأنَّه غُرة مهر أشقر) في وصف الصّيد والرَّوض البازي ظهر من خلال الدّراسة ما يأتي:

أولًا: كثرة مظاهر الطبيعة في هذه القصيدة خاصة، وفي شعر ابن المعتز عامَّة، وكذا لهذه المظاهر أثر واضح في الأسلوب؛ إذ كانت المادة الَّتي نحت منها الشّاعر صوره ومشاهده، وذكرت بها مناظره، وصاغ منها تشبيهاته واستعاراته وكناياته، بمهارة فنية، وصنعة أدبية، فوجه الثَّرى كالعصب أو كالوشي أو كالجوهر، وكذا الرَّوض مغسول بليل مُمْطر، وأدمع الغُدْران تكدَّر، والشّمس إصحاء جو أخضر، وألبس السّاقي صفات الخزل في حسنه وجماله، لكنَّه عاد وجعل للغزال صفات السّاقي سواء أكانت فتاة حسناء أم غلامًا أمردًا، وأطنب في الوصف، وكأنَّك ترى السّاقي وقد جمع صفات الغزل وصفات الجمال البشريّ، وقد كانت تشبيهاته واستعاراته وكناياته حسنة بليغة، وظَّفها خير توظيف لخدمة المعنى وتجسيده وكشفه.

ثانيًا: كان اللون حاضرًا عن ابن المعتز جعله عنصرًا أسلوبيًا فاعلًا في كشف المعنى وتوضيحه، فذكر الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر، كما ذكر من الألفاظ ما يدل على الألوان ويقوم مقامها كقوله:

ثالثًا: سهُلت ألفاظه، وقرُبت معانيه، وتسلسلت أفكاره؛ فهو يصف الجياد والرَّوض والسّاقي والبازي، وكأنَّه ينظم عقدًا حسنة لآلؤه، جميل منظره، رائق نغمه ووقعه، طروب لمن سمعه.

رابعًا: استعماله للأسلوب الخبريّ كان مناسبًا للوصف، واتكاؤه على جملة الحال

متتابعة متوالية كان مناسبًا للوصف أيضًا، وكان له كبير الأثر في مشاهدتها وكشفها.

خامسًا: أحسن التعامل مع حروف الرّبط (أو، إنَّ، عن، من، على، في، الواو، الباء) وأحسن توظيفها واستعملها على الحقيقة مرَّة وعلى المجاز أخرى...

المصادر والمراجع

١- الاتقان، للسيوطي، ت: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٢- أساس البلاغة، للزمخشري، تقديم وتعليق: محمد أحمد هاشم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣- أسرار البلاغة، للإمام: عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلَّق عليه: محمود محمد شاكر، ط: أولى ١٩٩١م، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٤- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، لأبي بكر الصّوليّ، طبع بمطبعة الصّاوي بمصر ١٩٣٦م.

٥- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيَّان التوحيدي.

٦- بغية الإيضاح، لعبد المتعال الصّعيدي، مكتبة الآداب، ط: أولى ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

٧- تحرير التحبير لابن أبي الأصبع، ت: حنفي محمد أشرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٨- التعبير عن المعنى واحتمال عكسه دراسة بلاغية، مطبعة إيجيبت كوبي سنتر. أسيوط ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٩- تفسير ابن كثير، من دون مطبعة وتاريخ طبع.

١٠- تفسير أبي السّعود، مكتبة الرِّياض الحديثة، من دون تاريخ.

١١- تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

١٢- الجنى الدّاني في حروف المعاني، للمرادي، ت: فخر الدّين قباوة، والأستاذ: محمد نبيل فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة

١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
١٣- حاشية الصّبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، من دون.
١٤- الدّلالة النّفسية للألوان وتشبيهات ابن المعتز في الخمر والغزل، د. أبو زيد شومان، بحث نُشر في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد الثلاثون، الجزء الأول، يوليو ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
١٥- ديوان ابن المعتز، تقديم وتحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت.
- ديوان ابن المعتز، دراسة وتحقيق: د. محمد بديع شريف، ذخائر العرب، ٥٤ من غير مطبعة وتاريخ طباعة.
- ديوان ابن المعتز، فسَّر ألفاظها الغريبة ووقف على طبعها: محي الدّين الحبَّاط، طبع بمناظرة والتزام: عبد الباسط الأنسي، صاحب جريدة الإقبال، طُبع في مطبعة الإقبال في بيروت، من دون تاريخ طباعة.
١٦- ديوان امرؤ القيس.
١٧- ديوان طرفة بن العبد، ت: فوزي عطوى، دار صادر بيروت سنة ١٩٨٠م.
١٨- الرّسم بالألوان في القرآن الكريم، د. أحمد رأفت علي عبد المنعم، دار الجميل للنشر والتوزيع، من دون تاريخ.
١٩- رصف المباني في شرح حروف المعاني، للمقالي، ت: أحمد محمد الخرَّاط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، من دون تاريخ.
- السّخر عن أبي نواس وابن المعتز دراسة بلاغية موازنة، للباحثة: أسماء محمد فهمي حسين. رسالة ماجستير.
٢٠- شرح المعلقات السّبع للزوزني.
٢١- شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، من دون تاريخ.

٢٢- الطراز، للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، من دون تاريخ.
٢٣- العمدة، لابن رشيق، ت: محمد محي الدّين عبد الحميد، ط: الخامسة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، دار الجيل. بيروت.
٢٤- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٥- مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي، شروح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، من دون تاريخ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٢٦
نص القصيدة في الدّيوان.	٣١
نص القصيدة من أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم لأبي بكر الصّولي.	٣٢
أفكار القصيدة:	٣٥
أولًا: وصف الجياد والسّحر.	٣٦
ثانيًا: وصف الوحش والرِّياض.	٤٨
ثالثًا: وصف الخمر والسّاقي.	٦٦
رابعًا: وصف البازي (الصقر).	٧٢
خامسًا: خصائص الألفاظ والأساليب والمعاني في القصيدة.	٨٠
الخاتمة.	٩٤
فهرس المصادر والمراجع.	٩٦
فهرس الموضوعات.	٩٩